في نور القرآن العظيم

سورة الفرقان

عبر وعظات
آيات وبراهين
صفات أولياء الله الصالحين

تأليف
أحمد بن محمد طاحون

مكتبة التراث الإسلامي

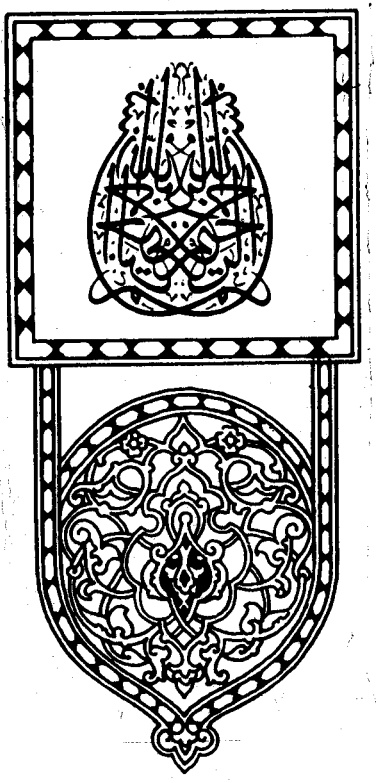

حقوق الطبع محفوظة

١٤١٤ من الهجرة

الطبعة الأولى عام:

١٩٩٤ من الميلاد

مكتبة التراث الإسلامي

٨ شارع الجمهورية عابدين القاهرة ت: ٣٩١١٣٩٧ فاكس: ٣٩١٣٤٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا * قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠:٩٣]

قال رسولُ الله ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ الناسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نارًا فَجَعَلَ الفَرَاشُ وهذه الدَوابُّ تقعُ فى النَّار، فَجَعَلَ الرجلُ يَزَعهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ، ويقْتحِمْنَ فيها، فأنا آخُذُ بِحُجَزِكم عن النارِ، وأنتم تَقَحَّمُون» أخرجه مسلم والبخارى إلى «تقع فى النار» والراوى أبو هريرة.

يزَعهنّ: أى يدفعهنّ

بحجزكم: جمع حُجْزَة وهى معقد الإزار من السراويل.

تقحّمون: أى تتقحمون أى تدخلون

تمهيد

التفاوت فى الحظوظ نعمة، والحسد نقمة

قال الله تعالى: ﴿وجعلنا بعضكم لبعضٍ فتنةً أتصبرون﴾ [الفرقان: ٢٠]

وقال سبحانه: ﴿أمْ يحسدُون الناسَ علىٰ ما آتاهم الله من فضله﴾ [النساء: ٤٥]

وفى الحديث الذى رواه ضمرة بن ثعلبة أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يزال الناسُ بخير ما لم يتحاسدوا**».

من الحكمة التفاوت بين الناس:

اقتضت حكمةُ الله عز وجل أن يتفاوت الناس فى الحظوظ ، وأن تكون بينهم فروق فردية فى قدراتهم، وطريقة تفكيرهم ، وفى بسطةِ العيش وضيقه ، وفى القوة والضعف ، والصحةِ والمرضِ ، والإيمانِ والكفر ، وفى الخبرات وسائرِ المعارف والعلوم ، وفى المهن والصناعات ، والله عز وجل يقول: ﴿أو لم يَعْلَموا أنَّ اللهَ يبسطُ الرزقَ لمن يشآءُ ويقْدرُ إنَّ فى ذٰلك لآياتٍ لقومٍ يؤمنون﴾ .[الزمر: ٥٢]

﴿لآيات﴾: أى لعلاماتٍ وبراهينَ على وجود الله عز وجل ، وعلى كمال قدرته وحكمته وتدبيره، فمهما جهد الإنسان فى سعيه فإنه لا ينال إلا ما قُدِّر له ، ومهما أخذ من الحيطة والأسباب فإنه لا يستطيع دفْع ما كتب عليه وقُدِّر ، فاللهُ عز وجل هو المتصرفُ الفاعلُ بحكمته وعدلهِ فيوسعُ على إنسان ، ويضيق على آخر ، وهذا التفاوتُ برهانٌ على وجود المدبر الحكيم الذى تقعُ الأمورُ على مقتضى إرادته وحده ، وبهذا التفاوتِ أيضًا يتمُّ التعاونُ بين الناس على عمارة الحياة ، وتحقيقِ الغاية من وجود الإنسان ، فهو خُلق لعبادة ربِّه أولا ، ثم للسعى والعمل والانتفاع بما فى الكون ، وفى باطنِ الأرض مما سخَّره الله له لترقية حياته ، ولا يتمُّ ذلك إلا بالتفاعل بين الخبرات المتعددة والقدرات المختلفة.

فالناسُ للناس من بدْوٍ وحاضرةٍ ... بعضٌ لبعض وإن لم يشعروا خَدم

إذْ لابد من تضافر الجهود ليتحققَ الخيرُ للناس وإلا سكنت ريحُ الحياة ، وما قام

عمران ، وما علا بُنيان ، والواقعُ يشهد للحكمة البالغة ، فهذا صانعٌ ، وذاك زارع ، وهناك العالمُ والمتعلم ، والسلطانُ والرعية ، وصاحبُ المهنة وصاحب رأس المال ، والتاجرُ والمشترى ، والطبيبُ والمريض ، والمهندس والعاملُ ، والخبازُ والحائك ، وقُل ما شئت من صنوف المهن والحرف والدراية.

ولنتدبر قول الحكيم الخبير : ﴿نحنُ قَسَمنا بينهُم مَّعيشتَهم فِى الحياةِ الدُّنيا وَرفعْنا بعضَهم فوقَ بعضٍ درجاتٍ ليتخذَ بعضُهم بعضًا سُخريًّا ورَحمةُ ربِّك خيرٌ مِّمَّا يَجمعُون﴾ [الزخرف: ٣٢]

أى أفقرنا قوما وأغنينا قوما ـ أى على مقتضى مشيئته سبحانه وحكمته ـ فكيف يُفَوَّضُ أمرُ النبوة إليهم ، كما فاضلنا بين الناس فمنهم الرئيسُ والمرؤوس ، والغنى والفقير ، وغيرُ ذلك من ألوان التفاوت .. وسخريا : أى مسخَّرا فى العمل مستخدما فيه .

بالتفاوت بين الناس تظهر فائدة التعاون:

ولابد لهذه القوى البشرية التى تموج بها المجتمعات من التعاون الصحيح ، ومن التعاطف ، والتكافل ، لكى يتمَّ بناءُ الحياةِ بناءً سليما قائمًا على المحبة وإرادة الخير ، وأن يُحب المرء لغيره ما يحبه لنفسه ، وأن يكرهَ له ما يكرهه لها ، ولقد كان التفاوت بين الناس فتنةً واختبارا من علام الغيوب : أيصبرون ويشكرون ، أم يضجرون ويسخطون ويجحدون ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون﴾ أى إن الدنيا دارُ بلاء وامتحان ، فقد أراد سبحانه أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم فى جميع الناس : مؤمنهم وكافرهم ، فالصحيحُ فتنةٌ للمريض ، والقوىُّ فتنة للضعيف ، والغنى فتنة للفقير ، والفقيرُ الصابر فتنة للغنى ..

ومعنى هذا أن كل واحد مُختبرٌ بصاحبه ، فالغنىُّ ممتحَنٌ بالفقير عليه أن يُواسيه وأن يجودَ بسخاء لسد حاجة المسكين، ولا يسخَر منه ، والفقيرُ ممتحَنٌ بالغنى عليه ألا يحسده ، وألا يأخذ منه إلا ما أعطاه ، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق ، كما قال الضحاك فى معنى ﴿أتصبرون﴾ أى على الحق .

وأصحابُ البلايا يقولون : لِمَ لمْ نُعاف؟ والأعمى يقول : لم لم أُجعل كالبصير ؟ وهكذا صاحبُ كل آفة . والعاقلُ الحكيم يعتقد أنه لا رادَّ لقضاء الله فهو يصبر ويحتسب رجاءَ ما هو أبقى وأنفع.

كما جعل الله إمهالَ الكفار والتوسعةَ عليهم ، وعدمَ معاجلتهم بالعقوبة اختبارا للمؤمنين الذين يُبتلَون فى أنفسهم ، وفى أموالهم ، والذين إذا صبروا كان لهم الجزاءُ الأوفى ، وفيهم يقول الحق : ﴿**إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون**﴾ [المؤمنون: ١١١]

وإن الرسول المخصوصَ بكرامة النبوة فتنةٌ لأشراف الناس من الكفار فى عصره ، وكذلك العلماء وحكامُ العدل ، ألا ترى إلى قولهم لـمّا حسدوا النبى ﷺ على نعمة النبوة وهو الفقير الذى نشأ يتيمًا ، قالوا : ﴿**لولا نُزِّل هذا القرآنُ على رجلٍ مِّن القريتين عَظيم**﴾. [الزخرف: ٣١]

فالفتنة أن يحسد المبتلَىٰ المعافَىٰ ويحقر المعافَىٰ المبتلَىٰ ، والصبرُ :أن يَحبس كلاهما نفسه ، الغنىُّ والقوىُّ عن البطر والكبر ، والفقيرُ والضعيف عن الضجر والسخط.

وقد جاء فى الحديث الذى رواه أبو الدرداء : «ويلٌ للعالم من الجاهل ، وويلٌ للجاهل من العالم ، وويل للمالك من المملوك ، وويل للمملوك من المالك ، وويل للشديد من الضعيف ، وويلٌ للضعيف من الشديد وويلٌ للسلطان من الرعية وويل للرعية من السلطان ، وبعضُهم لبعض فتنة ، وهو قوله تعالى : ﴿**وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون**﴾ أسنده الثعلبى.

الحسد نقمة وشر:

ولما كان الحسد من أعظم آفات النفس فقد حذر منه الدين ، ونهى عنه القرآن الكريم ، وبيَّن عواقبه السيئةَ الرسولُ الأمين ﷺ.

فالحسدُ حال فى النفس المريضة غير الصابرة ، وغير الشاكرة ، هذه النفس المريضةُ تتمنى زوال النعمة عن المحسود ، وهى بذلك تعادى نعم الله عز وجل وتنقم على قضائه وقدره ، فالله وحده هو المنعم الوهاب يُعطى ويمنع كما يشاء

سبحانه ، والدنيا إلى زوال ، والآخرة خير وأبقى ، كما أن الحسدَ من أعظم الأسبابِ الصادةِ عن الحق والخير ، وقد حسد زعماء الضلال من اليهود والمشركين النبيَّ محمداً ﷺ على نعمة النبوة فآذوه ، وعادوه ، وهم يعلمون صدقه.

وفى الأثر : «إن لنعم الله أعداءً ، قيل : ومن هم ؟ قال : الذين يحسدون الناسَ على ما آتاهم الله من فضله » وهم بهذا الحسد يكونون أهلا لمقت الله وغضبه.

إن المجتمع المسلم إذا خلا من التحاسد عاش الناسُ سعداء بلا هموم ، ولا أحقاد ولا تقاطعَ ، ولا تدابرَ ، وكان عيشهم هنيئا ، أما إذا تحاسد الناس فقد حلت النقمة وعمَّ الشقاق ، وإذا لم يتب الحاسد ، ويستغفر من ذنبه كان له سوءُ المآب إذ الحسدُ كما أخبرنا النبى ﷺ يذهب بالحسنات ، ويُحبط أجرها ، وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة رضى الله عنه: «إياكم والحسدَ فإن الحسدَ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ» أخرجه أبو داود وغيره

وقد تبرأ النبى ﷺ من الحاسد لأنه ناقمٌ على ربه ، مُنكرٌ لعدله غيرُ راض بقضائه وقدَره ، وهذا نقصٌ ينافى سلامةَ التوحيد ، وفيه مخالفةٌ لطريق الأنبياء ، ومشاركةٌ لإبليس فى حبه الأذى والشر للعباد.. وفى الحديث الذى رواه عبدُ الله ابن بُسر أن النبى ﷺ قال: «ليس منى ذو حسدٍ ولا نَميمة ، ولا كهانة ، ولا أنا منه ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿والذين يُؤذون المؤمنين والمؤمناتِ بغيرِ ما اكتسبُوا فقد احتملُوا بهتانًا وإثمًا مُّبينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨]» أخرجه الطبرانى.

فى الإيمان بقضاء الله سكينة وراحة:

إن العبد لا يصيبه إلا ما كتب الله له أو عليه ، وإن المحسود لا يضره حسدُ الحاسد ـ بإذن الله تعالى ـ ولن تزولَ النعمة بسببه ، فالله عز وجل قدَّر وتقديره نافذٌ ، ونعمةُ المحسود باقية بإذن الله وإرادته رضى الحاسد أم سخط ، وكلُّ شىء عند الله بمقدار ، ولكل أجل كتابٌ ، ولن يغيِّر الحسدُ من قضاء الله شيئًا ، إذ لا يقع للعبد إلا ما يريده الربُّ سبحانه ، وكم تمنى الكفار أن يعود المؤمنون إلى الكفر

بعد أن طهر الله قلوبهم منه فحسدوهم ، ونقموا عليهم، ولكن نعمة الإيمان ظلت تعمر قلوب أهل التوحيد فى زمن النبى ، وستظل إلى يوم القيامة ، فلو كانت النعم تزول بالحسد لما بقى على وجه الأرض مؤمن ، ولنتدبر قوله تعالى: ﴿ودَّ كثيرٌ من أهلِ الكتابِ لو يردُّونكُم من بعدِ إيمانِكم كُفَّارًا حسدًا مِّن عندِ أنفسِهم﴾. [البقرة: ١٠٩]

إن أشد الحاسدين إثما هو الذى يسعى لإثارة العدواة ، ويعمل على إلحاق الضررِ بالمحسود ، أو يحاولُ النيلَ من سمعته والتشهيرَ به ، أو ينالُ منه بلسانه ظلمًا وعدوانًا ، والحاسدُ بهذه الصورةِ صديقُ إبليس ، وواحدٌ من جنوده والعياذ بالله ، لهذا أمرنا الله تبارك وتعالى بأن نلتجئ إليه وحده ، نستعيذُ به من شر الحسد والحاسد ، إذ لا دواءَ لدفع هذا الشرِّ الذى لا تراه العينُ ولا تلمسهُ اليد ، لا دواء له إلا اللجوء إلى عالم السر والنجوى القادرِ على كلِ شىء.. والله عز وجل يقول : بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿قُل أعوذُ بربِّ الفلقِ * من شرِّ ما خَلَقَ * ومن شرِّ غاسقٍ إذا وقَب * ومن شرِّ النفَّاثاتِ فى العُقَد * ومن شرِّ حاسدٍ إذَا حَسَد﴾.

الحَسد مرض يُفسد خلق صاحبه :

إن الحسد يُفسد الخلق ، ويُفرِّق الجماعة الواحدة ، ويُسهِّل على صاحبه الكذبَ، والغيبة والنميمة ، والغدرَ والسعايةَ ، إذا وجد فى واحد من هذه الخصالِ الذميمة ما يساعده على تحقيق غرضِه من محسوده ـ والعياذ بالله ـ إن المسلم الحكيمَ إذا وجد فى صدره شيئًا من ذلك نحو أخيه ، عليه أن يستعيذَ بالله العظيم من الشيطان الرجيم ، وأن يدعوَ لأخيه بالخير والبركةِ سواء فى ماله ، أو أولاده ، أو جاهه ، أو علمِه ، أو صحته ، أو نجاحِه فى مهنته أو غيرِ ذلك من الحظوظ الموزَّعةِ بين الناس بمقدارٍ وبقضاءٍ وقدَر.

طُوبىٰ لمن يشتغل بإصلاح نفسه:

إن الإنسانَ إذا خلا قلبُه من الغش للناس ، وإذا خلا بالُه من هموم الحقد والحسد والشر والعداواتِ عاش سعيدًا ، ناعمَ البال ، منصرفًا إلى حاله لإصلاح

نفسه وأهله والإعداد لليوم الآخر بالعمل الصالح.. وإن من أجلِّ الوصايا لراحة النفسِ والضمير ، وسلامةِ القلب مما يعكِّر نورَ الإيمان فيه ، نصيحةَ رسول الله ﷺ لأنس بن مالك قال: «قال لي رسول الله ﷺ : يا بُنَي إن قَدَرتَ على أن تُصبحَ وتُمسِيَ ليس في قلبك غِشٌّ لأحدٍ فافعَل» رواه أنس ، وأخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب.

وعن عبد الله بن عمر قال: «قيل يا رسولَ الله: أيُّ الناسِ أفضل؟ قال : كلُّ مَخموم القلبِ، صدوقِ اللسان ، قالوا : صدوقُ اللسان نعرفُه، فما مخمومُ القلب ؟ قال هو التقيُّ النقيُّ لا إثمَ فيه ، ولا بغْيَ، ولا غِلَّ ، ولا حسد» أخرجه ابن ماجة بإسناد صحيح والبيهقي وغيره أطول منه.

وفي الحديث «قد أفلح من أخلصَ قلبَه للإيمان ، وجعل قلبَه سليمًا ، ولسانَه صادقًا ، ونفسَه مطمئنةً، وخليقتَه مستقيمة..» أخرجه أحمد والبيهقي عن أبي ذرٍّ.

والحمد لله رب العالمين على نعمة الإسلام ، وطهارة القلوب من الآفات.

أحمد بن محمد طاحون

عام ١٤٠٨ من الهجرة
١٩٨٧ من الميلاد

***

١ ـ تعظيم القرآن والدعوة إلى التوحيد والتنزيه

سبحان مالك المُلك ، ومُدبِّر الأمر ، سبحان الذى خَلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور . سبحان الذى أنزل على عبده محمد الكتابَ ولم يجعل له عِوجًا . سبحان الذى نزّل القرآن يَفْرِق بين الحقِّ والباطل والهدى والضلال ، والغى والرشاد ، والمؤمن والكافر ، والحلال والحرام.

سبحان من أرسل الرياحَ مبشِّراتٍ بالغيث ، وأرسل المطر رحمةً بخلقه ، وأجرى الأنهار ، وأحيا الأرض وفلق الحبَّ والنَّوى ، وقدَّر لكل نفس رزقها.

سبحان الذى لا إلهَ غيرُه ، ولا ربَّ سواه ، ولا تنبغى العبادةُ إلا له لأنه ماشاء كان ، وما لم يشأ لم يكن.

سبحان خالقِ كلِّ شىء ، ورَبِّه ومليكه وإلٰهه، سبحان مَن كلُّ شىء تحت قهره ، وتسخيرِه ، وتدبيرِه ، وتقديرِه ، المنَزِّه عن الولد والوالدِ والعديل والنظير والشبيه ، بل هو الواحدُ الأحد ، نطقت آياتُه بقدرته وشهدت مخلوقاته بكمال حكمته وتدبيره.. سبحانه.

أُنظروا ـ يا أهل العقل والحكمة ـ فى سورة الفرقان.. وتدبروا ما جاء فيها من تعظيم القرآنِ ، وما تضمنته من ذكر مطاعِن الكفار فى النبوة وشبهاتِهم ، وظنونِهم ، وأوهامِهم ، والردِّ على ما أثاروه ، ودحض الباطل الذى أوردوه ، ومن جملة باطِلهم قولُهم : إن القرآنَ افتراهُ محمدٌ ﷺ وإنه ليس من عند الله.

وسورة الفرقان مكية فى قول الجمهور.

القرآن أعظم نعمة:

وقد بدأت السورة الكريمةُ بثناء الله على نفسه ، إذ رحم عبيده فَنزَّل القرآن العظيم على عبده محمدٍ ﷺ لينذرَ الإنسَ والجنَّ فهو رسولٌ إليهما ونذيرٌ لهما ، وهو خاتمُ الأنبياء ، أرسله ربُّه لهداية الخلقِ إلى الحق ودعوتهم إلى الخير ، وإنارة السبيل أمامهم للتفريق بين الحق والباطل والهدى والضلال ، والحلال والحرام.. ولنتدبر: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿تبارك الذى نَزَّل الفرقانَ على عبده ليكونَ للعالمين نذيراً﴾.

وتبارك: تفاعَلَ من البركة المستقِرَّة الدائمة الثابتةِ فعطاؤه سبحانه لا ينقطع ، وإنعامُه لا يُنكر ، وبفضله وإحسانه جادت السماء بخيرها ، وانشقت الأرض عن بركاتها ، وأحاطت بنا أسبابُ الحياة من كل جانب.

ومن أعظم البركات ، وأجلِّ الخيرات نزولُ الفرقان على عبد الله ورسوله به تحيا القلوب ، وتنير الأفئدةُ بنور هداه ، ويُرْشَد العقل ويُهذَّب الضمير ويُصقل ، ويُدَلُّ الإنسانُ على ما فيه خيرُه ونفعه وأسبابُ سعادته.. ففى الآية الكريمة تنبيهٌ إلى فضل القرآن العظيم ، فهو غذاءُ الروح ، وشفاءُ النفس ، ورحمةٌ للمؤمنين ، وبفضل القرآن انتقل الناسُ من طور الجهالة إلى العلم، وخرجوا من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان والهداية ، وعرفوا أسبابَ النجاة والهلاك ، فمن اتَّبع القرآن هُدِى إلى صراط مستقيم ، ومَن تركه ونأىٰ عن طريق النبىِّ ﷺ ضلَّ ضلالًا بعيداً.

وفى الآية الكريمة ـ أيضًا ثناءٌ على النبى محمد ﷺ لأن الله عز وجل أضافه إلى عبوديته ﴿على عبده﴾ كما وصفه بها فى أشرف أحواله وهى ليلةُ الإسراء: ﴿سُبحانَ الذِى أَسْرَىٰ بعبدِه ليلًا﴾ كما وصفه بها فى مقام

التضرع والعبادة والدعوة: ﴿وأنه لما قامَ عبدُ اللهِ يدعُوه كادُوا يَكونُون عليه لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩] وكذلك وصفه بالعبودية عند إنزالِ الفرقان عليه ﴿تبارك الذى نزَّل الفرقان على عبده﴾. [الفرقان: ١]

اللهُ واحد:

وتعالوا نتدبَّر قوله تعالى: ﴿الذى لَهُ مُلكُ السماواتِ والأرضِ ولمْ يَتَّخِذ ولداً ولمْ يكُن لَّه شَريكٌ فى المُلك وخلَق كلَّ شىءٍ فقَّدره تقديراً﴾.

[الفرقان: ٢]

وفى هذه الآية تقريرٌ للوحدانية التى هى أساسُ الدِّين، وللدعوة إليها بُعث جميعُ المرسلين، وقامت الأدلةُ فى الكون كلِّه على وحدانية الخالقِ وكماله سبحانه.

عظَّم الله تعالى نفسه فهو مالكُ السموات والأرضِ وما فيهما ومن فيهما وما بينهما، وهو مدبرُ الأمورِ بحكمته وإرادته، لا يحتاج إلى معين ولا إلى مُشير، وقد نزَّه سبحانه نفسَه فى الآية عما قاله المشركون من أن الملائكةَ بناتُ الله، وعمَّا قالت اليهودُ من أن عزيرَ ابنُ الله، وعما قالت النصارى: المسيحُ ابنُ الله، تعالى الله عن ذلك.. فنزه سبحانه نفسه عن الولد وعن الشريك، وفى هذا تعليمٌ للعبيد وتحذيرٌ لهم حتى لا يقعوا فيما وقع فيه الهالكون الذين عبدوا غيرَ الله ممن عبدوا الأولياء والقبورَ والأصنام وغيرها من المخلوقات ﴿ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك﴾ أى هو سبحانه الواحدُ الأحدُ الفردُ الصمدُ ﴿وخلق كلَّ شىء﴾ أى كلَّ شىء مما سواه مخلوقٌ مربوب، ومن المخلوقين عيسى بن مريم عليه السلام، وعزير عليه السلام، والملائكة، فالجميع خلْقُه وعبيدُه ومسخَّرٌ لما خُلق له، وواقعٌ تحت قهره وسلطانه، فَضلَّت

أمة يجعلون لله ولدًا أو ندًّا أو يجعلون للمخلوق قدرة الإيجاد ، فالمخلوق سببٌ ، والموجِدُ هو الله الباقى الدائم الذى خلق وأوجد كلَّ شىء ﴿فقدره تقديراً﴾ أى أن كلَّ شىء تحت قهره وتسخيره وتدبيره وتقديره وقد قدَّر كلَّ شىء مما خلق بحكمته على ما أراد ، لا عن سهوة وغفلة بل جرت المقاديرُ على ما خلق الله إلى يوم القيامة ، وبعد القيامة فهو سبحانه الخالقُ المقدر ، فإياه فاعبدوهُ .

جهل المشركين والملحدين :

ثم انتقل سياقُ الآياتِ إلى بيان عِظم جَهْلِ الملحدين والمشركين فى نسيانهم الخالقَ العظيم ، واتخاذِهم الآلهةَ من دونه سبحانه مع ما أظهر لهم سبحانه وتعالى من الدلالة على وحدانيته وقدرته ، وهيا تدبَّر ـ يا ذا اللب ـ قولَ الحق تبارك وتعالى بعد أن عَظَّم نفسَه ونزَّهها عن الشريك والولد، وبعد أن بيَّن انفرادَه بالخلْق والإيجاد والمُلك والتدبير: ﴿**واتَّخذوا من دونه آلهةً لَا يَخلُقون شيئًا وَهُم يُخلَقُون وَلا يَملِكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا ولَا يَملكون موتًا و لَا حياةً وَلا نُشوراً**﴾ . [الفرقان: ٣]

وفى هذه الآية الكريمة براهينُ تنير للعقل طريقه ، وتدله على كمال الإلٰه ، ووحدانيته . . إذ هو الخالقُ ، وبيده وحده النفعُ والضر ، وبيده وحده الموتُ والحياة والبعث . . فكيف يلجأ الإنسان العاقلُ إلى غير ربه يدعوه ويستغيثُه ويقدم له القرابينَ ، ويرجو منه دفْعَ الشر أو جلبَ الخير .

إن المخلوق لايقدر على خلق جَناح بعوضة ، فكيف يُتَّخذإلٰهًا من دون الله ، والمخلوق لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ، فكيف يملك ذلك لعابديه ؟ والمخلوق لا يملك موتًا ولا حياةً ولا بعثًا بعد الموت ، وليس له من ذلك شىء ، بل ذلك كلُّه مرجعُه إلى الله وحده، فهو الذى يُحيى

ويُميت ، وهو الذى يعيد الخلائق يوم القيامة كما بدأهم: ﴿ماخَلْقكُم ولابَعثُكم إلا كنفسٍ واحدة﴾ [السجدة: ٢٨]. . ﴿إن كانت إلَّا صيحةً واحدةً فإذا همْ جميعٌ لدَينا مُحضَرون﴾ [يس: ٥٣] فهو الله الذى لا إله غيره ، ولا رب سواه ، ولا تنبغى العبادة إلا له ، لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن.

نصيحةٌ إلى أهل العقل والحكمة:

إن الآية الكريمة تناديك ـ يا ذا اللب ـ أنِ اعبدْ ربَّك الذى خلقك ويملك موتك وحياتك ، وهو وحده النافع الضار ، والجميعُ عبيده ، والعبدُ محال أن يكون إلهًا أو يشاركُ الإلهَ الواحدَ فى صفات كماله ، ونعوتِ جلاله ، فهو سبحانه الحىُّ الباقى الدائم لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض، يعلم ما فى نفوسنا ، وما كان وما سيكون، وهو وحده المقصودُ فى الحوائج على الدوام لعظم قدرته وكمالها، يفعل ما يشاءُ ، ويَحكمُ ما يريد ، لا مُعَقِّب لِحُكمه ، ولا رادَّ لقضائه ، وهو سبحانه الذى يحتاج إليه كلُّ أحد ، وهو مُستغنٍ عن كل أحد ، وهو المستغاثُ به عند الشدائد ، وتُرفع إليه الحاجات ، وتُطلب منه الخيرات ليس فوقه أحدٌ ، وهو الباقى بعد خلقه ، وهو الذى يَغلب ولا يُغلَب المنزَّهُ عن المخافات ، المقدسُ عن الآفات ، وهو الأول بلا ابتداء والآخرُ بلا انتهاء. . سبحانه هو اللهُ الصمد.

***

٢- (أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا) وسخف تفكير الملحدين والمشركين

فى الآيات الثلاث الأولى من سورة الفرقان عظَّمت السورةُ الكريمةُ القرآن العظيم ، وبيَّنت أن النبىَّ محمدًا ﷺ مبعوثٌ إلى العالمين الإنسِ والجنِّ ، ثم أقامت البرهانَ على وحدانية الله عز وجل ، وأنه سبحانه المعبودُ بحقٍّ ولا معبودَ بحق سِواه ، وكشفت عن سخافة تفكير من يُقدِّم شيئا من عبادته أو خوفه ورجائه لغير الله، لأنه يضعُ الأمورفى غير محلِّها ، ويقدِّمُ العبادةَ لمن لا يستحقها.

انتقل السياق بعد ذلك إلى مناقشة أهل الضلال والشركِ فى مطاعنهم فى النبوة ، وردَّت عليهم ، وبيَّنتْ سخافةَ عقول الملحدين والمشركين الذين يُعرضون عن الدليل ويَجمُدون على الأباطيل ، ولنتدبر قولَ الحقِّ تبارك وتعالى : ﴿وقال الذينَ كفَرُوآ إن هٰذا إلَّآ إفكٌ افتَراه وأَعانه علَيه قومٌ آخرون فقدْ جَاءوا ظُلمًا وزُوراً * وقالوا أَساطيرُ الأولينَ اكتَتَبها فَهِى تُمْلىٰ علَيهِ بُكرةً وأَصيلًا﴾ . [الآيتان: ٤، ٥]

﴿إفكَ افتراه﴾ أى كذبٌ اختلقه ، ﴿وزوراً﴾ أى باطلًا وكذبًا عظيمًا ﴿أساطيرُ الأولين﴾ أى أكاذيبُهم المسطورةُ فى كتبهم، وواحد الأساطير أسطورة ، مثل أحدوثة وأحاديث ، و﴿بُكرة وأصيلا﴾ أى أول النهار وآخره ، يعنى دائمًا.

أهل الضلال يُعرضون عن البرهان:

إن هؤلاء وأمثالَهم من أهل الضلال والكفر يغلب عليهم الهوى ويسوقُهم إلى الهلاك الرغبةُ فى العاجلة ، وعدمُ التدبر فى أمر الآخرة.

إن المشركين حين سمعوا القرآن الكريم يُتلىٰ ، وحين قرع الدليلُ والبرهانُ عقولَهم وقلوبَهم ، وقامت الأدلةُ ناصعةً أمامهم على صدق الداعى ﷺ ، إنهم حين أُحيطوا بنور الآيات جَمَدوا على ما ورِثُوه من الباطل، وثار الحسدُ فى قلوبهم وفار ، وغلبتهم شهواتُهم الدنيئة فأعرضوا عن البرهان والدليل ، ولجأوا إلى الاتهام بالباطل ، وقدّموا المطاعنَ ظالمين مزوِّرين ولا حجَّةَ فى كلامهم ، ولا برهانَ على ما قالوه فى شأن القرآن وفى النبى محمد ﷺ .

لقد عميت بصائرُهم ، وألغَوا عقولَهم فقالوا عمَّن عرفوا صِدْقَه وبِرَّه، وأمانته ، ونزاهتَه من الكذب ، وعرفوا طهارته من الأخلاق الرذيلة . . قالوا عنه ﷺ ، وهم يعلمون أنهم كذَّابون فيما تقوَّلوه ، قالوا ، تارةً : ساحرٌ ، وتارة : شاعرٌ ، وتارة : مجنونٌ ، وأخرى قالوا : كذّابٌ . . ممّا يَفضح نواياهم الخبيثةَ ، ويدلُّ على تخبُّطهم ، وعدمِ رغبتهم فى التفكّر الصحيح ، والتدبّرِ بحكمة ورويّة رغبةً فى معرفة الحقِّ والإيمان به . . وهذا حالُ أهلِ الضلال والإلحاد فى كل زمان.

لقد قال المشركون : ﴿إنْ هذا﴾ أى القرآن الكريم ﴿إلَّا إفك افتراه﴾ أى كذبٌ اختلقه محمد ﷺ ﴿وأعانه عليه قوم آخرون﴾ أى واستعان على جمعه بقوم من اليهود . . لقد قال المشركون ذلك مع أنه ﷺ تحدَّاهم بالقرآن وهم أهلُ فصاحة وبلاغةٍ تحدَّاهم أن يأتوا بمثل سورة أو آيةٍ منه فعجزوا ، وأقرُّوا فى مواقفَ عدّة بأن القرآن ليس من كلام البشر وأنه يعلو عن كلام المخلوقين ، فكيف يقولون إنه ﴿اكتتبها فهى تُملَىٰ عليه﴾ أى تُلقىٰ عليه وتُقرأُ من مخلوقين مثله ﴿بكرة وأصيلا﴾ أى فى أول النهار وآخره حتى تُحفَظ ؟ وهم يعلمون أنها ليست أساطير وأنها لا

تُملى عليه من بشر مثله ، ولكنه العنادُ الذى بيَّنه الحقُّ تبارك وتعالى فى قوله من سورة الأنعام : ﴿قد نعلمُ إنّه لَيحزنُك الذى يقولُون فإنَّهم لَا يُكذِّبونكَ وَلكنَّ الظَّالمين بآياتِ اللهِ يَجْحدُون﴾ . [٣٣]

إن مطاعن المشركين صادرةٌ عن غىّ ، وهوى فهى من الزور والبهتان وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يردَّ عليهم ليحقَّ الحق ويُبطل الباطل فقال له : ﴿قُلْ أَنزلَه الذى يعلمُ السرَّ فِى السمٰواتِ والأَرضِ إنَّه كانَ غفورًا رحيمًا﴾ . . [الفرقان: ٦] أى قل لهم يا محمد . . أنزل هذا القرآنَ الذى يعلمُ غيبَ السمٰوات والأرض ، يعلمُ السرائرَ كعلْمه بالظواهر ، وليس الأمرُ كما تزعمون أيها المشركون ، فليس القرآنُ من كلام البشر بل هو كلامُ ربِّ العالمين نزل به الروحُ الأمينُ على قلب خاتم النبيين ، وأودع فيه فنونَ الحِكَم والأسرارِ على وجهٍ بديع ، وقد أعجز العربَ الفصحاء قاطبةً بفصاحته وبلاغته ، وأخبر بمغيَّبات مُستقبَلة ، وبأمور مكنونة لاّ يُهتدى إليها ، ولا يُوقف عليها إلا بتوفيقٍ من الله العليم الخبير ، وأيضًا لو كان ما يقوله النبىُّ محمد ﷺ مأخوذًا من أهل الكتاب أو من غيرهم لتمكَّن مشركو العربِ منه كما تمكن محمدٌ ﷺ ، فهلاّ عارضوه !

وبهذا فقد بطل اعتراضُهم من كل وجه.

ومن فضل الله وإحسانه أن دعا عبادَه فى هذه الآية الكريمة إلى التوبة والإنابة : ﴿إنه كان غفورًا رحيمًا﴾ وفى هذا إخبارٌ بأن رحمته سبحانه واسعةٌ ، وأنّ حلمه عظيم ، وأنَّ من تاب تاب الله عليه ، فهؤلاء المعاندون مع كذبهم وافترائهم وكفرِهم وقولِهم عن الرسول والقرآنِ ماقالوا يدعوهم ربُّهم إلى التوبة والإقلاع عمّا هم فيه وإلى الإسلام والهدى . . فما أعظم رحمةَ الله وكرمَه وجودَه !

من صور التعنُّت مع الرسول ﷺ :

ومن تَعنُّت المشركين ، ورغبتهم فى التكذيب بلا حجةٍ ولا برهان أنهم ذهبوا إلى وجهٍ آخر من المطاعن فقالوا كما أخبر الله عز وجل : ﴿وَقَالُوا مَالِهَٰذَا الرسولِ يأكلُ الطعامَ ويَمشى فِى الأسواقِ لولآ أُنزلَ إليه مَلَكٌ فيكونَ معَه نذيراً * أو يُلقىٰ إليه كَنزٌ أو تكونُ له جنةٌ يأكلُ منها وقالَ الظالمونَ إن تتبعُونَ إلاّ رجلًا مّسحوراً﴾ . [الفرقان: ٧، ٨]

إن الملحدَ والضالّ يكون دومًا بعيدًا عن الهدى والرشاد إذ لا يستخدم عقلَه استخدامًا صحيحًا فينظرَ فى الأدلة نظرَ إنعام وتفكر ، لهذا تخبط المشركون فى محاولاتهم تكذيبَ النبى ﷺ ، وكان الردُّ يُفحِمُهم ، وكان الحقُّ يُبطل كيدهم ، ويَدْحَضُ أقاويلَهم وافتراءاتِهم. . ولما وضح كذبُهم فى دعوى أن القرآنَ كلامُ بشر ، ورُدَّ كيدُهم إلى نحورهم بالدليل رجعوا إلى أسلوب آخرَ فيه سخفٌ وتهافتٌ ، فقالوا له ﷺ : مابالُك وأنت رسولُ الله تأكل الطعام ، وتقفُ بالأسواق ! فعيّروه بأكل الطعام لأنهم أرادوا أن يكون الرسولُ مَلَكًا ، وعيَّروه بالمشى فى الأسواق حين رأوا الأكاسرةَ والقياصرة وسائرَ الرؤساءِ يترفَّعُون عن الأسواق ، وكان النبى ﷺ يخرجُ إلى أسواقهم ويَعِظهم ، ويدعوهم إلى الخير بالحكمة والدليل ، كما كان يتردَّد فى الأسواق وإليها طلبا للتكسب والمعاش، كما كان عليه السلام يعرض نفسَه على القبائل فى هذه الأسواق لعل الله أن يرجعَ بهم إلى الحق ، فقال المعاندون : ماله تخالفُ سيرته سيرةَ الحُكام فى ترفُّعهم عن الأسواق ، فأجابهم الله بقوله: ﴿ومَآ أرسَلْنا قَبْلَكَ من المرسَلين إلَّا إنهُم ليأكلُون الطعامَ ويَمشُون فى الأسواق﴾ [٩]. . أى فَلا تغتمّ يا محمد ولا تحزن ، فإن تعييرهم هذا لا يلحقُك منه بأسٌ إذ جميعُ الرسلِ إلى الخلق كانوا من البشر الذين لا غنى لهم عن الطعام ولا لمعايشهم عن المشى فى الأسواق والتردُّدِ إليها.

ثم عاد المعاندون وقالوا : هلا أُنزل إليه ملك من عند الله فيكون له شاهداً على صدق ما يدَّعيه ، فإن لم يصحبه ملَكٌ يُعينه ، فلماذا لا يُغنىٰ عن المشى فى الأسواق بأن يُلقى إليه كنزٌ يستعين به ، ويُنفِق منه ، ويصير به غنيًّا ، فإن لم يوجد الكنز فلا أقلَّ من أن يكون له بستانٌ يتعيَّش بريعه كما للمياسير من الناس، ومما لا شكّ فيه أن كل ذلك سهلٌ يسير على الله ،ولكنْ له سبحانه الحكمةُ والحجةُ البالغة ، وليس فى الفقر أو الغنى مقياسٌ على قوة النفس وما يُجْبَلُ عليه المصْطفَوْن الأخيارُ من الكمالات الإنسانية ، والفطنة ، ونور العقل والبصيرة ، وإن ذا اللب يرى أن مطاعن المعاندين تَصدر عن وهم ، وعن باطل وسطحية ، وعن تعنّت وسُخف تفكير ، ولذا فإنهم يتهافتون على المطاعن دون دليل أو برهان يقبله العقل السليم والفطرةُ المستقيمة ، فتتساقطُ هذه المطاعنُ الواحد بعد الآخر ويُخزىٰ أصحابُها.

لقد ضرب المشركون كثيراً من الأمثال ليتوصَّلوا إلى تكذيبه ﷺ ، فضلُّوا وبعُدوا عن الحق ، كما بعدوا عن بلوغ ما أرادوا . . ولنتدبر قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وقال الظالمونَ إن تتبعُونَ إلَّا رجلًا مَّسحوراً * انظُرْ كيفَ ضَرَبُوا لكَ الأمثالَ فضلُّوا﴾ [الفرقان: ١٠، ١١] أى جاءوا بالأباطيل من قولهم : ساحرٌ ، ومسحورٌ غُلب على عقله ، ومجنونٌ ، وشاعرٌ ، وغيرُ ذلك. . وكل ذلك أقوالٌ باطلة لا تثبت أمام الدليلِ والواقع ، فبقوا لذلك متحيرين ضُلالاً متخبِّطين ، لا يجدون فى القدح على النبوة قولاً يستقرون عليه ، ولذا قال سبحانه ﴿فلا يستطيعون سبيلًا﴾ أى إلى ما يؤيِّد دعواهم أو يصحح ما قالوه فى النبى محمد ﷺ لبُعد ما قالوه عن الحق والصواب لأن الحقَّ واحد ومنهجٌ متَّحدٌ يصدِّق بعضُه بعضًا.

نسأل الله صحة اليقين وصدق الإيمان

***

٢- (بل كذبوا بالساعة) ولم ينظروا فى الدليل والبرهان

سبحان من تزايد خيرُه وتكاثر ، ولولا رحمتهُ بنا لهلكنا.

سبحان مَن لا تُحصىٰ نعمُه ، ولا يُحصر خيرُه.

سبحان مَن تعالى عمَّن سِواه فى ذاته ، وصفاته ، وأفعالِه .. فهو الواحدُ الأحد الفردُ الصمد.

سبحان المنعمِ الوهابِ يبسط الرزقَ لمن يشاء ويَقدر على مقتضىٰ حكمتِه وإرادته لا يُسأل عمَّا يفعل.

سبحان مَن أغنى نفوسَ أوليائه عمَّا فى أيدى عباده ، فجعل غِناهم فى صدورهم ، وأعدَّ لهم فى العالم الآخر مالا عينٌ رأت ولا أُذن سمِعت ، ولا خطرَ على قلبِ بشر من النعيم والرَّوح.

عرفوا صدقه وأمانته ﷺ :

كان النبى محمد ﷺ أغنى الناسِ نفسًا ، وأعفَّهم ، وأصدقَهم وأمضاهم عزمًا ، وأشجعَهم قلبًا ، وأعظمَهم أمانةً ، وأحلمَهم وأوسعَهم صدرًا ، وأشدَّهم تواضعًا ، وأبعدَهم نظرًا ، وأكثرَهم سدادًا وتوفيقًا بفضل الله وإحسانه ، أدَّبه ربُّه فأحسن تأديبَه، ومنحه من الكنوز النفسية مالا يُعدّ متاع الدنيا إلى جانبها شيئًا مذكورا.

اصطفاه ربُّه ، واختاره للرسالة العامة الخالدة ، فهو رسولُ رب العالمين إلى الناس كافةً عربهم وعجمهم ، وهو خاتمُ النبيين ولا نبىَّ بعده، وقد نشأ ﷺ فى مكة يتيمًا ، وعاش ﷺ زاهدًا قنوعًا ، مع أنه لو أراد الثراء ،والغنى لأُعطِى خزائنَ الدنيا ومفاتيحَها.

عاب زعماء الضلال من المشركين على رسول الله ﷺ فقرَه وقلةَ ماله، وظنوا أن ذلك مطعنٌ يَقدح فى نبوته ﷺ لضيق فكرهم ، وسوء نظرتهم ، وسخفِ عقولهم، فقالوا : لماذا لا يُلقى إليه كنزٌ يُغنيه عن المشى فى الأسواق ؟ أو تكونُ له جنةٌ من نخيل وعنبٍ تتفجَّر الأنهارُ من خلالها تفجيرًا ؟ فأخبر الله عز وجل نبيه أنه لو شاء لآتاه خيرًا مما يقولون فى الدنيا وأحسن ، فقال سبحانه : ﴿تبارَكَ الذِى إن شآءَ جعَلَ لَكَ خيراً مِن ذَٰلكَ جنَّاتٍ تَجرِى مِن تَحتِها الأنهارُ ويَجْعَل لَّكَ قُصوراً﴾.

[الفرقان: ١٢]

العبدُ الصابرُ الشاكر:

قال القرطبى : ويُروىٰ أن هذه الآية أنزلها رضوان خازنُ الجنان إلى النبى ﷺ ، وفى الخبر : أن رِضوانَ لما نزل سلَّم على النبى ﷺ ، ثم قال : يا محمدُ، ربُّ العزة يُقرئك السلام ، وهذا سَفَط -[1] فإذا سفطٌ من نور يتلألأ - يقول لك ربُّك : هذه مفاتيحُ خزائنِ الدنيا ، مع أنه لا يَنقصُ مَالَكَ فى الآخرة مِثْلَ جَناحٍ بعوضة ، فنظر النبىُّ ﷺ إلى جبريلَ كالمستشير له ، فضرب جبريلُ بيده الأرض يُشير أنْ تَواضعْ ، فقال ﷺ يا رِضوان لا حاجةَ لى فيها ، الفقرُ أحبُّ إلىَّ وأن أكونَ عبدًا صابرًا شكورًا، فقال رِضوان : أصبتَ ، اللهُ لك»

السفط : وعاء طيب.

النظر فى الدليل والتفكّر فيه يشرح الصدر:

إن الإنسان إذا تخلّى عن العناد ، ورغِب فى معرفة الحقِّ ، ونظر فى الدليل فإن صدرَه ينشرحُ بفضل الله، ويزولُ عنه كيدُ

١- السفط الذى يعبى فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء ، وقيل الجوالق.

الشيطان ، وتنقشعُ عن نفسه ظلماتُ الهوىٰ فيكونُ فى ذلك الخيرُ له فى الدنيا وفى الآخرة . . أما إذا ركب الإنسانُ رأسه ، ولجَّ فى عناده ، فإنه يفقد التبصُّر ، ويَعمىٰ قلبُه عن الحق ، وهذا هو موقفُ أهل الضلال من النبى محمد ﷺ ، فقد كانت مطاعنُهم بسبب عنادهم ، وغلبةِ الشهوات على نفوسهم، مما جعلهم يكذِّبون بيوم القيامة ، ولذا عاندوا، وكابَرُوا وتقوَّلوا ، وكشف اللهُ نواياهم لنبيه ﷺ فقال: ﴿بل كَذَّبوا بِالساعَةِ﴾ أى إنما يقول هؤلاء ما يقولون تكذيبًا وعنادًا ، لا أنهم يطلبون ذلك تبصُّرًا واسترشادًا ورغبةً فى معرفة الحق واتِّباعِه ، بل تكذيبُهم بيوم القيامةِ يَحملهم على قول ما يقولونه من الأباطيل والسخافات.

ياويل المكذبين بالساعة:

وقد توعَّد الله عز وجل المكذبين بيوم القيامة بأن لهم عذابًا أليمًا حارًا لا يُطاق فى نار جهنم : ﴿وأَعتدْنَا لمن كذَّبَ بالساعةِ سَعيراً﴾ [الفرقان: ١٣] هذه النار رُصدت لهم ، وتترقَّب وُرودَهم : ﴿إِذَا رَأَتهُم مِّن مَّكانٍ بَعيدٍ﴾ أى من مسيرة خَمسمائة عام ، ﴿سَمِعُوا لهَا تَغَيُّظًا وزفيراً﴾ [الفرقان: ١٤] أى إذا رأتهم جهنمُ سمعوا لها صوتَ التغيُّظ عليهم ، قال الكلبى : سمعوا لها تغيُّظًا كتغيُّظِ بنى آدمَ وصوتًا كصوت الحمار ، وفسَّر قُطرب قال والمعنى : رأوا لها تغيظًا ، وسَمِعُوا لها زفيرًا. . ومن حديث ابن عباس فى تفسير الطبرى: (وإن الرجل ليُجرُّ إلى النار ، فتشهقُ إليه شُهوقَ البغلةِ إلى الشعير ، وتَزفر زَفرةً لا يبقىٰ أحدٌ إلا خاف).

وقد رُوى مرفوعًا ـ كما جاء فى القرطبى ـ أن رسول الله ﷺ قال: «من كذَب علىَّ متعمدًا فليتبوَّأ بين عَيْنى جهنَّم مَقعدًا ، قيل : يارسول

الله ، ولها عينان ؟ قال : (أما سمعتم اللهَ عز وجل يقول : ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظًا وزفيرًا﴾ يخرج عُنق من النار له عينان تُبصران ولسانٌ ينطق ، فيقول وُكِّلت بكل مَن جعل مع اللهِ إلهًا آخر فلهو أبصرُ بهم من الطير بحب السِّمسم فيلتقطُه).

وفى رواية : (فيخرج عُنق من النار فيلتقطُ الكفارَ لقْط الطائر حبَّ السمسم) ذكره رَزِينٌ فى كتابه ، وصححه ابن العربى فى قبسه، وقال: (أى تَفصِلُهم عن الخلق فى المعرفة كما يَفصل الطائرُ حبَّ السمسم من التربة).

وخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة بزيادة وغيرهُ بمعناه.

فياويل من أصرّ على كفره وشركه حتى يلقى ربه.. إن جهنم لَتلْقُطُه كما يَلقط الطير الحبَّ ، وإنها لَتُضيَّق على الكافر كتضييق الزُّج على الرمح ـ أى الحديدة التى فى أسفل الرمح ـ ويصفَّدون بالسلاسل أى يُكتَّفون بأن تُقرن أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال ، هنالك يندم الكفار ولاينفعهم الندمُ ، ويَدعون على أنفسهم بالهلاك ، ويتمنَّون أن يكونوا ترابًا .. ولنتدبر قوله تعالى : ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنها مكانًا ضيِّقًا مُقرَّنينَ دَعَوْا هُنالكَ ثُبورًا﴾ [الفرقان: ١٥] أى يدعون على أنفسهم بالويل والحسرة والخيبة والهلاك ، وجاء فى مسند الإمام أحمد برواية أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال : «أولُ مَن يُكسى حُلَّةً من النار إبليسُ ، فيضعُها على حاجبيه ، ويسحبُها من خلفه ، وذريتُه من بعده ، وهو ينادى : ياثُبوراه، وينادون : يا ثُبورَهُم حتى يَقفوا على النار، فيقول إبليس : يا ثبوراه ـ أى يا هلاكاه ـ وتقول ذُرِّيتُه من خَلْفه : يا ثُبورَهُم ، فيُقال لهم : «لا تَدْعُوا اليومَ ثبورًا واحدًا وادعوا ثبورًا كثيرًا» أى فإن هلاككم أكثرُ من أن تدعوا مرةً واحدة»..

وفى هذا تبكيت ، وإيلام ، وإنذارٌ بدوام العذابِ والصراخ.

العاقل يختار طريق أصحاب النعيم يوم الدين:

إن من رحمة الله بنا أن بيّن لنا مصيرَ الكفار والمشركين والمصرِّين على المعاصى ، لينزجر أصحابُ القلوب اللينة وليرتدعَ ذوو العقول المستقيمة السليمةِ فيرجعَ إليهم رشدُهم ، ويتوبوا إلى الله قبل فوات الأوان، ويرجعوا إلى دين الفطرة التى فطر اللهُ الناسَ عليها ، وهو دينُ التوحيد وإخلاص العبادة لله، واتباع النبى محمد ﷺ.. لهذا أمر الله نبيَّه أن يلفتَ أهلَ الجحود والشركِ والشكِّ إلى نعيم الجنة ، وما فيها من الراحة والسعادة والرَّوح ليقارنوابينه وبين شقاءِ أهل جهنم ، وفى ذلك ما يوقظ القلبَ من غفلته ويردُّه عن غيه وشروده ولنسمع قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا * لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾. [الفرقان: ١٥-١٦]

أى قل يا محمد : هذا الذى وصفناه لك من حال أولئك الأشقياء الذين يُحشرون على وجوههم إلى جهنم ، ويُضيَّق عليهم فيها ، ويُكتَّفون فى سلاسلها ولا فكاكَ لهم ممّا هم فيه... أهذا خيرٌ - يا أهل العقل والتمييز والفهم - أم جنةُ الخلد التى وَعدها الله أهل التوحيد الأتقياء وجعلها بفضله وإحسانه جزاءً لهم على الطاعة والإخلاصِ فيها ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ من الملاذِّ ممّا لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت من المآكل والمشارب والملابس والمساكنِ والمناظر وغير ذلك ممَّا لا يَخطرُ على قلبِ بشرٍ ، مع الخلودِ فى هذا النعيم المتجدِّد الذى لا يُملّ ، إنهم أطاعوا ربَّهم وسألوه الجنةَ فى الدنيا ، ورغبوا إليه بالدعاء ، فأجابهم فى الآخرة إلى ماسألوا، وأعطاهم ما طلبوا..

سلوا الله جنات النعيم.

***

٤ - بشرية الرسول ومحاجة المشركين لهدم أباطيلهم

إن آيات سورة الفرقان وبراهينَها تُنير للإنسان طريقَه ، وتقيم له الأدلة على وحدانية الخالقِ ، وتفردِه بالإلهية ، وتُبطل مزاعمَ المشركين والملحدين وتهدمُ مطاعنَهم فى النبوة ، وتُثبت لهم بطلانَ اتخاذِ آلهةٍ من دون الله يخضعون لها ، أويستغيثون بها ، أو يُقدمون القرابين رجاءً أو خوفًا ممَّن لا يملك نفعًا ولا ضُرًّا ، أو يعبدونهم اعتقادًا منهم أن هذه الآلهةَ تُقرِّبهم إلى الله زُلفَىٰ . . كما يفعل الذين يعبدون عيسى ، أو عُزيرًا ، أو الأصنام أو قبورَ الأنبياء والصالحين ، أو غيرَ ذلك مما اتخذه الناس آلهةً من دون الله ، فتتوجه دعواتُهم واستغاثاتُهم إليها .

إن هذا وغيرَه مما يناقض سلامةَ الإيمان ، وصحةَ اليقين ، تناولته سورةُ الفرقان ، وحذَّرت ، وأنذرت ، وبينت الآياتُ مصيرَ من يموت مصرًّا على شركه ، لعل هذا النذيرَ يوقظُ الغافل ،وينبهُه ، فيصححَ معتقداتِه ومسالكَه ومشاربَه بما يتفق مع ما جاء به النبى محمدٌ ﷺ .

إقامة الحجَّة على العباد :

إن الله عز وجل وهب الإنسانَ العقلَ والفهم ، وأرسل له الرسلَ وأنزل الكتبَ ، ولفت عبيدَهُ إلى الأدلة على وجوده وقدرته ، ووحدانيته ، وإلى الطريق التى توصلهم إلى مرضاته سبحانه ، ومن الناس من يختارُ الهدى ويثبتُ عليه ، ويتبع الرسول ، ومنهم من تغلبه أهواؤه وشهواتُه وتسوقه الشبهاتُ إلى الهلاك والشقاء الدائم .

إنَّ الشركَ خزى وندامة :

وفى يوم القيامة يَحشر اللهُ عز وجل الكفار وما كانوا يعبدونه من دون

الله عز وجل ، وذلك فى موقف خزى وندامة وتقريع وتوبيخ لهؤلاء الذين اختاروا الضلالة فعبدوا الملائكةَ ، أو الجنَّ ، أو الإنسَ ، والمسيح بنَ مريمَ ، وعُزيرًا ، ويقول الرب تبارك وتعالى: أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دونى أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسِهم من غير دعوة منكم لهم . . وفى السؤال توبيخٌ وتقريع للكفار ، وفيه زيادةُ حسرةٍ فى نفوسهم . . ولنسمع قول الله عز وجل : ﴿ويومَ يَحشُرهمْ وَما يَعبدُون من دُونِ الله فيقولُ أَأَنتُمْ أَضلَلْتُم عِبَادى هٰؤلاءِ أَمْ هُم ضَلُّوا السَّبيلَ﴾ [الفرقان: ١٧] وذلك كما فى قوله تعالى لعيسى بن مريم : ﴿أَأَنتَ قُلتَ للناسِ اتَّخِذُونِى وأُمِّىَ إلٰهينِ مِن دُونِ الله..﴾ . [المائدة: ١١٦]

ولهذا قال الله مخبراً عمَّا يُجيب به المعبودون يوم القيامة : ﴿قالُوا سُبحَانَكَ﴾[١] أى تنزيهًا لك يا ربَّنا عن الشريك والنِّدِّ والولدِ وعن مشابهة المخلوقين : ﴿مَا كَانَ يَنبغِى لَنا أن نَّتخِذَ مِن دُونكَ مِن أولياَءَ﴾[١] أى ليس للخلائق كلِّهم أن يعبدوا أحدًا سواك، لا نحنَ ولا هم ، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك ، بل إن هؤلاء المشركين قالوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرِنا ولا رضانا ، ونحن بُرآء منهم ومن عبادتهم ، فى هذا الموقف يتبرأ المعبودون من دون الله ممن عبدوهم حتى أن الاصنامَ وغيرها من الجماد يُنطقها الله عز وجل يوم القيامة كما يُنطق الأيدىَ والأرجلَ وهى تشهد على أصحابها . . أعاذنا الله من الخزى والندامة .

﴿ولكن متَّعتهُم وآبَاءَهم﴾[١] أى متَّعتهم يا ربَّنا فى الدنيا بالصحة ، والغنى وطولِ العمر ﴿حتى نَسُوا الذِّكْرَ﴾[١] أى حتى تركوا ذكرك فأشركوا بك بَطَرًا وجهلًا ، فعبدونا من غير أن أمرناهم بذلك ، وحتى نسُوا - أيضًا - ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريكَ لك .

﴿وكانوا قومًا بورًا﴾[1] أى هلكىٰ . . مأخوذ من البوار وهو الهلاك.

وعند تَبرِّى المعبودين يقول الله تعالى للهالكين: ﴿فقدْ كَذَّبوكُم بِمَا تَقُولُون﴾[1] أى فقد كذبكم الذين عبدتُم فيما زعمتم أنهم لكم أولياء وأنكم اتخذتموهم قربانًا يُقربونكم إلى الله زُلفىٰ .

﴿فَمَا تَستطِيعُون صَرفًا ولا نَصرًا﴾[1] أى فما يستطيع هؤلاء الكفارُ لـمَّا كذبهم المعبودون (صَرفا) للعذاب عن أنفسهم (ولا نَصرا) من الله. . وفى قراءة مروية ﴿فما يَستطيعون﴾ يعنى أن هذه الآلهةَ ما يستطيعون صرفَ العذابِ عنكم أيها المشركون ولا نصركم. ﴿ومَن يَظْلِم مِّنكُم﴾[1] أى يُشرك بالله ﴿نُذِقْه عذابًا كبيرًا﴾[1] أى شديدًا. . وفى هذا تنبيهٌ لأولى الألباب ليصحِّحُوا العقيدةَ ، وليجعلوا العبادةَ خالصةً لله تعالى ، وليتبعوا الرسولَ ﷺ إذ الجزاءُ آتٍ لا ريب فيه ، فلا ينبغى لعاقل أن تغرَّه الدنيا وتخدَعه عن مصالحِ نفسه ، وتهيئتِها للسعادة الأخروية.

الرسل بشر عصمهم الله وطهرهم:

ثم فى مقام المحَاجَّةِ عن بشرية الرسولِ ﷺ ينبغى لأهل العقل والحكمة أن يلتفتوا إلىٰ أن تلك هى سنةُ الله عز وجل فيما بعثه من الرسل السابقين ، إذ اصطفَىٰ سبحانه رسلَه إلى الناس من البشر ، وكانوا يأكلون الطعامَ ، ويحتاجون إلى التغذِّى به ، ويخرجون إلى الأسواق للتكسُّب والتجارة ، وليس ذلك بمنافٍ لحال الرسل ومنصبهم ومكانتهم فإن الله عز وجل طهَّر بواطنهم ، ورزقَهم الفطنة ، وجعل لهم من السمات الحسنة والخصالِ الجميلة ، والأقوالِ الفاضلة الحكيمة والأعمالِ الكاملةِ والمعجزات والخوارق الباهرة ، والأدلةِ والبراهين ما يَستدلُّ به كل

١ـ الفرقان: الآيتان: [١٨، ١٩].

ذى لبٍّ سليم ، وبصيرةٍ مستقيمة على صدق ما جاءوا به من الله عز وجل، ولا شك أن المعجزةَ إذا ظهرت على يد بشر مثلِ المرسَلِ إليهم كان ذلك أدلَّ على صِدق الداعى ، وأدعىٰ إلى قبول ما جاء به والإيمانِ بما دعا إليه.. لهذا اقتضت الحكمةُ أن يكون الرسولُ بشرًا لا ملَكًا ولنسمع قولَه تعالى فى الردّ على أهل الضلال الذين قالوا: لماذا يأكلُ هذا الرسولُ الطعامَ ويمشى فى الأسواق ؟ ولماذا لا يكونُ ملَكًا من السماء أو ينزلُ إليه ملَكٌ يؤيده ؟ قال تعالى : ﴿**وَمَا أَرسلْنا قَبلَك من المرسَلين إلَّا إنَّهم لَيَأكلُون الطعامَ ويَمشُون فى الأسواقِ وجَعلْنا بعضَكم لبعضٍ فتنةً أَتَصْبِرون**﴾ [الفرقان: ٢٠] أى اختبرنا بعضكم ببعض ، وبلونا بعضكم ببعض لنعلم من يطيع ممن يعصى؟.

من أسباب الصدود عن الحق:

ولا شك أن الرسول المخصوصَ بكرامة النبوةِ فتنةٌ ، واختبارٌ لأشراف الناسِ وأهلِ المنزلة منهم ، فالمخذولون يقولون كما قال زعماء الشرك : ﴿**لَوْلا نُزِّلَ هَٰذا القُرآنُ علىٰ رَجُلٍ مِّن القَرْيتيْنِ عَظيم**﴾. [الزخرف: ٣١] فالفتنة هى الحسد الذى يصدُّ أصحابَ الجاهِ من المشركين عن اتباع الحق والإيمانِ بالرسول وتصديقه .

وهذا ما حدَث من كثيرين مثل : الوليد بنِ المغيرة ، وأبى جهل ، وأبى لهب ، وعُقبةَ بنِ أبى مُعيط ، وغيرهم ممن حسدوا الرسول ﷺ على نعمة النبوة وكان فقيرًا ، وقد نشأ يتيمًا مع إيمانهم بأنه صادقٌ ، وأمين وأن القرآن الكريم كلامُ الله حقًّا .

كما كان حول الرسول ﷺ رجالٌ من الفقراء والموالى فكان زعماءُ المشركين يسخرون منهم ، ويقولون : أنُسلم فنكونَ مثل هؤلاء أى مثلَ

عبدِ الله بنِ مسعود وعمارِ بنِ ياسر ، وبلال بنِ رباح ، وصُهيْب ، ومِهجع مولَىٰ عمرَ بن الخطاب وغيرِهم . . فقال الله عز وجل يخاطب هؤلاء المؤمنين الصالحين : ﴿أتصبرون﴾ أى على ما ترون من هذه الحال الشديدة والفقر ، ولو شاء الله عز وجل لجعل الدنيا مع رسله وأتباعهم ، ولكنه سبحانه اقتضت حكمتُه أن يُبتلى العبادُ بهم ، وأن يَبتليهم بالعباد ، لتكون العاقبةُ للمؤمنين الصابرين الذين يقول الله فيهم: ﴿إنى جَزَيتهُم اليومَ بِمَا صَبروآ أنهُم هُم الفَائزُون﴾ [المؤمنون: ١١١]

﴿وكان ربُّك بصيراً﴾[1] أى بمن يستحق أن يُوحَىٰ إليه ، ومن يستحق أن يَهدِيَه الله للحق الذى بَعث به الرسول ، ومن لا يستحق ذلك ، فكلُّ شىء يقع على مقتضىٰ حكمته سبحانه .

العاقل الحكيم تكفيه البراهين :

إن العاقل الحكيم المتدبر تكفيه المعجزةُ الدالة على صدق النبى ، والقرآنُ الكريمُ هو المعجزةُ الكبرىٰ الباقيةُ الخالدة ، كما تكفى العاقلَ الحكيمَ البراهينُ والآياتُ البيناتُ فى كتاب الله ، وفى الكون ، وفى النفس ، وقد خاطب الوحىُ العقلَ وكرَّمه ، وأرشده ، ولفته إلى ما يدله على الوحدانية والقدرة وكمال الحكمة ، وكمال التدبير ، ليُذعن، ويشهدَ أن لا إلهَ إلا اللهُ وأن محمداً رسول الله فيستقيمَ حاله ، وتصلحَ نفسُه ، وتحسُن عقباه إلا أن المتعنتين الذين لا يخافون البعث ولقاءَ الله لعدم إيمانهم بذلك طلبوا أن تَنزِل عليهم الملائكة ، أو رؤيةَ ربِّهم عِيانًا ليسألوا عن صدق النبى ﷺ . .

وفيما يلى نرىٰ هذا الموقفَ للمتعنتين الضالين وعاقبةَ التمادى فى الغفلة والشرك .

١ـ الفرقان: الآيتان: [١٨، ١٩].

٥ - تعنت المشركين والملحدين وعاقبة استكبارهم

التعنُّت والعناد فساد وهلاك:

إن عَدَمَ الاعتقادِ بالبعث ، من أعظم أسباب الفساد فى الأرض كما أن من أسبابه عدمَ الخوفِ من لقاء اللهِ عز وجل ، إِذْ إِنّ الذى لا يخاف لقاءَ ربه ، أو لا يؤمن بالبعث والحسابِ والجزاء يموت ضميرُه ، ويقسو قلبُه ، ويتعنتُ ويعاندُ حين يدعوه الداعى الأمين إلى الحق ، ويحثه على الدخول فى دين الله، ويُقيم له البرهانَ على أن البعث آتٍ لا ريبَ فيه.

ومن ذلك تعنتُ المشركين فى عهد النبى ﷺ وعنادُهم دون إذعان للدليل ، وخضوعٍ للبرهان .. وتأمَّلْ حالَهم وهم يقولون : هلاَّ أُنزِل علينا الملائكةُ من السماء فيخبروا أن محمدًا صادق ، ﴿أو نرى ربنا﴾ عِيانا فيخبرَنا بأن محمدًا رسولُه .. وهذا كما فى قوله تعالى من سورة الإسراء : ﴿وَقالُوا لن نُّؤمِنَ لَكَ حتَّى تَفجُرَ لَنا من الأَرضِ يَنبوعًا * أو تكونَ لكَ جنةٌ من نَّخيلٍ وعنَبٍ فتفجِّرَ الأنهارَ خلالَها تفجيرًا * أو تُسقِطَ السماءَ كَما زعمتَ علَينا كِسَفًا أَو تَأْتِيَ باللهِ والملآئكة قَبيلًا﴾ [٩٠-٩٢]

أعاذنا الله من الغرور والحسد:

إن سبب التعنت والعناد يرجع إلى الحسد والحقد ، أو التكبرِ واعتقادِ الإنسانِ فى نفسه العظمةَ فيغرُّه الشيطانُ ، ويخدعُه فى نفسه حتى يهلكه كما أنَ من أسباب التعنتِ الجمود على ما كان عليه الآباءُ والأجدادُ من عقائدَ وعوائدَ .. لهذا فإن مشركى مكةَ لماتعنَّتوا فى كُفرهم ، وطلبوا الآيات ، وسألوا الله الشطط فى مطالبهم ، بَين السياقُ من سورة الفرقان سبب هذا العناد الصادِّ عن الخير والهدى فى قوله تعالى :

﴿لقَد اسْتكبرُوا فِى أنفُسِهم وعَتوْا عُتوًّا كبيراً﴾ [٢١] وذلك بعد بيان سؤالهم فى قوله : ﴿وقَال الذِينَ لَا يرجُون لقاءَنا لوْلَا أُنزِل علَينا الملآئكةُ أو نَرىٰ ربَّنا﴾ . [٢١]

ومثل هذه النفوسِ الصادة عن الخير ، المظلمةِ بالجحود والنكران والاستكبار والحسد والغرور لا تنفعها الآياتُ - والعياذ بالله - كما جاء فى قوله تعالى من سورة الأنعام : ﴿ولوْ أننا نَزَّلنا إليهمُ الملآئكةَ وَكلَّمهم الموتىٰ وحَشرْنا علَيهِم كُلَّ شىءٍ قُبلًا مَّا كانُوا ليؤْمِنوا إلَّآ أن يشآءَ الله ولٰكنَّ أكثرَهم يَجْهَلون﴾ . [١١١]

وقد اقتضت حكمةُ الله عز وجل أن الملائكة لا تُرىٰ إلا عند الموت أو عند نزولِ العذاب . . أمَّا طلبُ الكفار رؤيةَ الله عز وجل فإنه يدلُّ على سفاهة ؛ فاللهُ عز وجل مُنزَّه عن مشابهة المخلوقين ، ولا تُدركه سبحانه الأبصارُ وهو يدرك الأبصارَ ، فلا عين تراه ، وإنما يراه سبحانه المؤمنون أهلُ الجنةِ يومَ القيامة فضلًا من الله ونعمة .

قال مقاتل : ﴿عُتوًّا﴾ علُوًّا فى الأرض ، والعتو : أشدُّ الكفر وأفحش الظلم . . وإذا لم يكتف المشركون والملحدون بالمعجزات وبهذا القرآن العظيم المعجز ، فكيف يكتفون بالملائكة ؟ وهم لا يُميزون بين الملائكة والشياطين ، ولا بدَّ لهم من معجزة يقيمها من يدَّعى أنه ملَك من السماء ، وليس للقوم طلبُ معجزةٍ بعد أن شاهدوا معجزة الرسول ﷺ .

ياويل الملحدين والمشركين عند الموت:

وقد أخبرت السورة الكريمةُ أنهم لا يروْن الملائكةَ فى يومِ خيرٍ لهم بل يومَ يرون الملائكةَ لا بُشرى لهم يومئذ : ﴿يومَ يروْنَ الملآئكةَ لَا بُشرىٰ

﴿يَومئذٍ للمُجرِمين﴾ [٢٢] أى إن الملائكة لا يراها أحدٌ إلا عند الاحتضار فتبشِّر المؤمنين بالجنة ، وتُنذر المجرمين بالنار وغضبِ الجبار ، وتضرِب الملحدين والمشركين بمقامعِ الحديد حتى تخرج أنفسُهم : ﴿ويقولُون حِجراً مَحْجوراً﴾ [٢٢] أى وتقول الملائكةُ للكافرين : حرام مُحرَّمٌ أن يدخل الجنةَ إلا من قال: لا إلـٰهَ إلَّاالله ، وأقام شرائعَها .. وأصلُ (الحِجر) المنع ومنه يقال : حَجَر القاضى على فلان إذا منعه التصرف إمَّا لسفه أو فلَسٍ أو صِغَر أو نحو ذلك ..

عن أبى سعيدَ الخدرى : ﴿ويقولون حِجراً محجوراً﴾ أى حرامًا مُحرمًا أن يُبشَّر بما يُبشَّرُ به المتقون ، إذ يبشَّر المؤمنون بالخيرات، وحصولِ المسرات، ويقال لروح المؤمن : اخرجى إلى رَوْح وريحان وربٍّ غير غضبان.

أمَّا الملحدون والمشركون فلنتدبر ما جاء فى شأنهم عند الموت لعل ذلك يردع النفوسَ عن الغىِّ والضلال: قال تعالى من سورة الأنفال : ﴿ولوْ تَرَى إذ يَتوفَّى الذينَ كَفَروا الملآئكةُ يضْرِبُون وجوهَهُم وأدبارَهم وذُوقوا عذابَ الحريق* ذٰلكَ بما قدَّمتْ أيديكم وأنَّ اللهَ ليس بظلَّام للعَبيد﴾[٥٠-٥١]

وفى سورة الأنعام: ﴿ولوْ ترىٰ إذ الظَّالمون فى غَمرات الموت والملآئكةُ بَاسطُو أيديهم﴾ أى بالضرب : ﴿أَخْرِجُوا أنفسكم اليومَ تُجْزَون عذابَ الهُونِ بما كنتُمْ تَقولُون علىٰ الله غيرَ الحقِّ وكنتمْ عنْ آياته تَستكبرون﴾ [٩٣]

وفى سورة محمد: ﴿فكيفَ إذَا تَوفَّتهم الملآئكةُ يَضربُون وُجوهَهم وأدبارَهم* ذٰلكَ بِأنَّهم اتَّبعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وكَرِهُوا رِضْوانَه فأَحْبطَ أَعْمالَهم﴾ [٢٧-٢٨]

إن الملائكة تقول عند خروج روحِ الكافر والمشرك : اخرجى أيتها النفسُ الخبيثة من الجسد الخبيث ، اخرجى إلى سَموم وحميم ، وظِلٍّ من

يَحموم ، فتأبىٰ الخروج، وتتفرقُ فى البدن ، فيضربونه ، وتُنزع روحه من تحت كلِّ شعرة ، ومن تحت الأظافير وأصولِ القدمين نزعًا كالسَّفود يُنزَع من الصوف الرطب ، ثم يُرجِعها فى أجسادهم ، ثم يَنزعها .

وكما تُرى الملائكةُ عند الاحتضار فإنها تُرى أيضًا يوم القيامة تتجلَّىٰ فى اليومين للمؤمنين وللكافرين ، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان وتُخبر الكافرين بالخيبة والخسران ، فلا بُشرى يومئذ للمجرمين ، بل تقول الملائكةُ للكافرين : حرامٌ مُحرَّم عليكم الفلاحُ اليوم.

لا يُقبَل لكافر عملٌ صالح:

إن كلَّ عملٍ صالحٍ من أعمال البِر والخيرِ يَفقد الإخلاصَ أو المتابعةَ لشرع الله ، أو يفقد الأمرين معًا بأن لا يكونَ خالصًا لوجه الله ولا يكونَ على الشريعة المرضيَّة التى هى سنةُ النبى ﷺ فهو عمل باطل ، وإن ما يعمله الكافر والملحدُ والمشرك من عملِ بر عند نفسه كحُسن الخلق وبِرِّ الوالدين والرحمةِ باليتامى ، ومساعدة الفقراء والضعفاء ونحو ذلك ؛ إن هذا العملَ لا ينتفع به صاحبهُ يوم القيامة إذ يُبطله الله بسبب الكفر . وقد بينت سورةُ الفرقان ذلك تنبيهًا على عِظَم قدرِ يوم القيامة.. فقال تعالى: ﴿**وقَدِمنا إلىٰ ما عَملوا من عملٍ فَجعلْناه هباءً منثورًا**﴾ [٣٣] أى إن الله تعالى أحبط أعمالَ المجرمين حتى صارت بمنزلة الهباءِ المنثور . والهباءُ المنثور : هو شعاعُ الشمس الذى يدخل من الكُوَّة وإذا ذهبْتَ تقبض عليه لم تستطع . أو هو الرمادُ أو ما يُشبه الغبارَ يُرىٰ فى الكوة فى ضوء الشمس .. ومعنى ذلك أن المجرمين عَمِلوا أعمالاً اعتقدوا أنها شىء ، فلمَّا عرضت على الملكِ الحكيم العَدل الذى لا يجور ولا يَظلم أحدًا من خلقه إذا هى لا شىء بالكلية ، وشُبهت فى ذلك بالشىء التافه الحقير

المتفرقِ الذى لا يقدر منه صاحبهُ على شىء بالكلية.

أما أهلُ اليقين الصحيح ، الذين أخلصوا التوحيد وعملوا الصالحات، واتبعوا الرسل ، فهم أصحابُ الجنة لهم الدرجاتُ العليَّات ، والغُرفاتُ الآمنات فهم فى مقام أمين ، حَسَنِ المنظر ، طيب المُقام ، ولنتدبَّر: ﴿أَصحابُ الجنةِ يومئذٍ خيرٌ مستقرًّا وأحسنُ مَقيلًا﴾ [٢٤] أى بما عملوه من الأعمال المتقبَّلة نالوا ما نالوا ، وصاروا إلى ما صاروا إليه من النعيم والأمن ، بخلاف أهل النارِ الذين يصيرون إلى الدركات السافلات ، والحسرات المتتابعات وأنواع العذاب والعقوبات ، فإنه ليس لهم عملٌ واحدٌ يقتضى لهم دخولَ الجنة ، والنجاةَ من النار . فنبه الله تعالى بحال السعداءِ على حال الأشقياءِ وأنه لا خيرَ عندهم بالكلية فقال: ﴿أَصحابُ الجنةِ يومئذٍ خيرٌ مستقرًّا وأحسنُ مَقيلًا﴾ .

وجاء عن ابن عباس : إنما هى ضَحوة ، فَيَقيل أولياءُ الله على الأسرَّةِ مع الحُور العين ، ويَقيل أعداءُ اللهِ مع الشياطين مقرَّنين.

وقال قتادة: ﴿وأحسنُ مقيلا﴾ أى منزلاً ومأوى وشتان بين مصير الفريقين.! فى يوم شديدٍ صعب على الكافرين لما ينالهم من الأهوال ويَلحقهم من الخزى والهوان ، وهذا اليوم يكون أخفَّ على المؤمنين من صلاة مكتوبة ، فى هذا اليوم يكون المُلْكُ الحق لله وحده ، ويذلُّ كلُّ جبار عنيد ، ولنسمع قول الله تعالى فى هول هذا اليوم وما فيه من الأمور العظيمة كانشقاق السماءِ وتَفطُّرها ، وانفراجِها بالغمام وهو ظُلَلُ النور العظيم الذى يُبهر الأبصار ، ونزولِ ملائكة السمواتِ يومئذ فيُحيطون بالخلائق فى مقام المحشر ، ثم يجىء الربُّ تبارك وتعالىٰ لفصل القضاء :

﴿ويومَ تشقَّقُ السمآءُ بالغَمام ونُزِّلَ الملآئكة تنزيلًا * الملك يومئذ الحق للرحمٰنِ وكانَ يومًا علىٰ الكافرِين عَسيراً﴾. [٢٥، ٢٦]

وفى هذا الموقف العظيم يشتدُّ ندم الملحدين . .

أعاذنا الله من الإلحاد وأهله . وأماتنا على اليقين الصادق ، إنه نعم المولى ونعم المجيب . .

***

٦- المعاندون والمتعنتون فى ضلال عظيم

إنَّ المشركين والملحدين الذين فارقوا طريق الرسول ﷺ ، وما جاء به من عند الله من الحق الـمُبين الذى لا مِريةَ فيه، وسلكوا طريقًا أخرى غيرَ سبيلِ الرسولِ سيندمون أشدَّ الندم ، حيث لا ينفعُ الندمُ صاحبَه وفى هذا اليوم حين يرون عِيانًا ما أخبرهم به الوحْىُ ، ونبَّههم إليه الرسولُ ﷺ يَعَضُّ كلُّ شقىٍّ على يديه حسرةً وأسفًا ، ويتمنى أن لو كان آمنَ بالرسول ، واتَّبعه ، ولزم سبيلَه ، ولم يتبع الأشقياءَ من إخوان السوء ، وأعوانِ الشياطين الدعاةِ على أبواب جهنمَ الذين زيَّنوا الإلحاد والشركَ والكفرَ والمعاصى..

العاقل يحذَرُ صُحبةَ أهلِ السوء:

وقد لفت اللهُ عباده إلى هذا المشهد من مشاهد القيامة ليعودَ أهلُ العقل إلى الحق ، وليحذرَ أهلُ الحكمةِ والفكرِ المستقيم من الدعاة إلى الضلال والشرِّ قبلَ فوات الأوان .. ولنسمع قولَ الله عز وجل من سورة الفرقان: ﴿ويومَ يعضُّ الظالمُ علَى يَديْه يقولُ ياليتَنى اتخذتُ معَ الرسولِ سبيلًا* ياويلَتَىٰ ليتَنى لمْ أتخذ فلانًا خليلًا * لقدْ أضلَّنى عنِ الذكرِ بعدَ إذْ جآءنى وكانَ الشيطانُ للإنسانِ خَذولًا﴾. [٢٧: ٢٩]

أى لقد أضلنى الشيطانُ أو من اتخذتُه فى الدنيا صاحبًا وخليلاً عن القرآن وعن الإيمان به وبالرسول ﷺ.

وإن شيطانَ الإنسِ والجنِّ يخذلُ تابعَهُ عن الحق ، ويصرفُه عنه ويستعملُه فى الباطل ، ويدعوه إليه ، ثم يتبرأ منه يوم القيامة.

وانتقل السياقُ بعد ذلك إلى شكوى الرسول ﷺ من المتعنتين الذين

قالوا فى القرآن الكريم غير الحق ولنتدبر قوله تعالى : ﴿وقالَ الرسولُ يا ربِّ إنَّ قَومى اتَّخذُوا هٰذا القرآنَ مهجوراً﴾ . . . [٣٠]

الرسول : هو النبى محمدٌ ﷺ يشكو المعاندين إلى الله.

ومهجوراً: أى متروكًا . . أوقالوا فيه غيرَ الحقّ من أنه سحرٌ وشعر.

وذلك أن المعاندين والمتكبرين كانوا لا يصغُون للقرآن ، ولا يسمعونه وكانوا إذ تُلى عليهم القرانُ أكثروا اللغطَ والكلامَ فى غيره حتى لا يسمعوا آياتِ الله . . فهذا من هجران القرآن .

ومن هجران القرآن تركُ الإيمانِ به وعَدَمُ تصديقه.

ومن هجرانه : تركُ تدبُّره وتفهمِه ، وتركُ العملِ به ، وعدمُ امتثال أوامره، واجتنابِ زواجره .

ومن هجران القرآن العدولُ عنه إلى غيره من أحكام وقيم وضعها البشرُ لأنفسهم ، أو من شعر أو قولٍ أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقةٍ مأخوذة من غيره.

إن شكوى النبىِّ ﷺ من المعاندين الذين آثُروا أحاديثَ الناس على القرآن الكريم ولم يتدبَّروه لينتفعوا ببراهينه وآياته وحكَمه وأحكامه ، هذه الشكوى فيها تنبيهٌ لأهل العقل والحكمة وخصوصًا من المسلمين ليُقبلوا على كتاب ربِّهم ، وليقوموا بمقتضاه آناءَ الليل وأطرافَ النهار ، وليطلبوا بحبِّ القرآن والعمل بما جاء به الوحى محبةَ الله ومرضاتَهُ.

وقد عَزَّى اللهُ نبيَّه محمدًا ﷺ وسلَّاه بقوله : ﴿وكَذٰلكَ جعلْنا لكلِّ نبىٍّ عَدوًّا مِن المجْرِمين﴾ أى كما جعلنا لك يا محمدُ عدوًّا من مشركى قومِك، فكذلك جعلنا لكل نبى عدوًّا من مشركى قومه ، فاصبرْ لأمرى كما صبروا فإنى هاديك وناصرُك على كل من ناواك: ﴿وكفَى بِربِّك هاديًا ونصيراً﴾ [٣١]

أى لمن اتَّبع رسوله ، وآمن بكتابه ، وصَدَّقه ، وَعَمِل بمقتضى أمْرِه ونَهيه فإن الله هاديه وناصرُه فى الدنيا والآخرة ، فعلى أهل الحق دوما أن يثبتوا على الصراط المستقيم محسنين التوكُّلَ على رب العالمين . .

المعاندُ مخذولٌ :

إن المعاند يُكثر دومًا من الاعتراض ، ويتعنَّت ، وكلما أُحيط بالدليل والبرهان لجأ إلى المطالب ، وتكلَّم فيما لا يعنيه ، وتَرَك الحوار والحجةَ إلى الصدِّ والإعراض.

من ذلك كما بيَّن السياق من سورة الفرقان أن أهلَ العنادِ من اليهود والمشركين ، قالوا : هلَّا أُنزل على محمد القرآنُ جملةً واحدةً كما نزلت الكتبُ قبله كالتوارة والإنجيل والزبور.

من أسرار نزول القرآن مفرَّقا:

فأجابهم الله عن ذلك بأنه إنما أُنزل مُنجَّما أى مفرَّقا فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع ، وما يُحتاج إليه من الأحكام لتثبيتِ فؤادِ النبى وأفئدةِ المؤمنين به ، ولنسمع الله عز وجل يقول : ﴿**وقالَ الذينَ كفروا لوْلَا نُزِّلَ علَيه القرآنُ جُملةً واحدةً كذٰلك لنثبِّتَ به فُؤادَك ورتَّلناه تَرتيلًا**﴾ . [٣٢]

﴿**كذلك**﴾ أى فعلنا ﴿**لنثبت به فؤادك**﴾ أى نُقوِّىَ به قلبك فتعيَه وتحملَه ، لأن الكتب المتقدمة أُنزلت على أنبياء يكتبون ويقرءون ، والقرآنُ الكريم أُنزل على نبى أمى ، ولأن من القرآن الناسخَ والمنسوخ ، فيَنْزِل ما يريد اللهُ نسخَه أولا ، كما تقتضى حكمتُه سبحانه ، ثم يَنزل الناسخُ بعد ومن القرآن ما يَنزل جوابًا لمن سأل عن أمور ، أو لبيانِ الحكم فى الحوادث والوقائع . . فنزل القرآنُ مفرقًا ليكونَ أوعى للنبى ﷺ ، وأيسرَ على العامل به ، فكان كلما نزل وحىٌ جديد زاده قوةَ قلب . .

﴿ورتَّلناه ترتيلا﴾ أى وبيَّناه تبيينًا ، وهذا من حكمة نزوله شيئًا بعد شىء منجَّمًا لا جملة واحدة.

وكذلك لو نَزل القرآن جملةً واحدة ، ثم سألوا النبى ﷺ لم يكن عنده ما يُجيب به ، فكانت الحكمةُ نزولَه مفرقًا فإذا سألوه أجابهم ، وكان ذلك من علامات النبوة ، لأنهم لا يَسألون عن شىء إلا أُجيبوا عنه ، وهذا لا يكون إلا من نبى ، قال تعالى : ﴿وَلَا يأْتونكَ بمَثَل إلَّا جِئناكَ بالحقِّ وأحسنَ تفسيرًا﴾ [٣٣] أى كلما أبدَوا مطعنًا فى النبوة والرسالة نزل جبريلُ عليه السلام من الله بجوابهم ، وجاءت الإجابةُ بما هو الحقُّ فى نفس الأمر ، وأبينُ وأوضحُ وأفصحُ من مقالتهم.

تهافُت أهلِ الضلال :

إن المشركين كانوا يستمدون مطاعنَهم وما يثيرونه من شبهات من أهل الكتاب ، وكان قد غَلب عليهم التحريفُ والتبديلُ ، أضِف إلى هذا أن زعماء الضلال دومًا يَخلطون الحقَّ بالباطل للتلبيس وإثارةِ الشبهات ، ولا شك أن الحق المحضَ أحسنُ تفسيرًا ، وفيه الإقناعُ، وفيه النورُ والهداية هم مثلاً حين كانوا يقولون فى صفة عيسى أنه خُلق من غير أب ، جاءهم القرآن بالحق الذى يَنقُض حُجَّتهم ويُبطل معتقدَهم فى ألوهية عيسى كما جاء فى قوله تعالى من سورة آل عمران : ﴿ذلك نَتلُوه عليْكَ مِن الآيَاتِ والذِّكر الحَكيم * إنَّ مَثَل عيسىٰ عندَ الله كمثَلِ آدمَ خلَقه من تُراب ثُم قالَ له كُن فَيكُون﴾ .. [٥٨ : ٦٢] فحجتُهم فى عيسى يَنقضُها خلْقُ آدمَ من غير أبٍ وأمٍّ ، لأن الله عز وجل له الحكمةُ البالغة، وهو يقول للشىء كن فيكون..

ثم إن من الحكمة فى نزول القرآنِ منجمًا أن تَنزل الأحكامُ والفرائضُ

بالتدريج ، ولو نزل جملةً واحدةً بما فيه من الفرائض والأوامر والنواهى لثقُل عليهم ، وقد علم الله عز وجل أن الصلاح فى إنزاله متفرقًا .

قال ابن كثير : فالقرآنُ أشرفُ كتابٍ أنزله الله ، ومحمدٌ صلوات الله وسلامه عليه أعظمُ نبى أرسله الله ، وقد جمع اللهُ تعالى للقرآن الصفتين معًا، ففى الملأ الأعلى أُنزل جملةً من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى سماء الدنيا ، ثم نَزل بعد ذلك إلى الأرض منجما بحسب الوقائع والحوادث.

سوء خاتمة المعاندين:

ثم انتقل سياقُ الآياتِ بعد ذلك إلى بيان سوءِ خاتمة الذين عاندوا النبى ﷺ ، وأكثروا من المطاعن بالظلم والزور وسخافةِ التفكير ، فنصر الله نبيَّه بالحجج الواضحة ، والبراهينِ القاطعة.

وأخبر اللهُ عز وجل عن سوء حال المتعنِّتين والمعاندين فقال : ﴿الَّذِينَ يُحشَرون عَلَىٰ وجُوهِهِم إِلَىٰ جهنمَ أُولَٰئِكَ شرٌّ مَّكانًا وأضلُّ سبيلًا﴾ [٣٤]

أى أن دينَهم وعقائدهم بعيدةٌ عن الهدى ، وهم محشورون على أسوأ حال وأقبح منظر إلى جهنم وبئس المصير.

لقد عاند فرعونُ وجنودُه موسى وهارونَ عليهما السلام ، كما عاند قوم نوح عليه السلام وكذَّبوا الرسلَ ، وكذلك كان موقفُ عاد وثمودَ وأصحابِ الرس ، وأممٍ أخرى لا يعلمُهم إلا الله بَيْن قومِ نوحٍ وعاد وثمود وأصحاب الرس ، فكان مصيرُ المعاندين الهلاك والدمار .

أغرق الله عز وجل فرعونَ وجنده ودمرهم تدميرًا ، وأهلك الطوفانُ قومَ نوح ، وأهلك الله بالريح العقيم عادًا الذين كذبوا هودًا عليه السلام وأهلك ثمودَ بالرجفة ، لأنهم كذبوا صالحًا عليه السلام وعاندوه ، وقد حل العذابُ بأصحاب الرسِّ وغيرهم كقوم لوط. .

وقد توعد الله عز وجل من كذَّب النبىَّ محمدًا ﷺ ومن خالفوه وحذرهم من عقابه وأليم عذابه ، ولهم فيما وقع للأمم السابقة آياتٌ ظاهرة على قدرة الله عز وجل ، وعبرةٌ يعتبرون بها.

ولنتدبر قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا * وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [٣٥ : ٣٩] أى بيَّنا لهم الحجج ، ووضَّحنا لهم الأدلة وأزحنا عنهم الأعذار ، فلما ظلوا على العناد والمكابرة والكفر أهلكناهم إهلاكًا.

ولنتدبر : ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [٤٠] يعنى المارِّين من الكفار على قرية قوم لوط فى أسفارهم لا يعتبرون بما جرى لهؤلاء القوم لأنهم لا يخافون البعث، ولا يؤمنون بالحساب فقستْ منهم القلوبُ وأظلمتْ .

إن الإنسان إذا لان قلبُه نفعته العظةُ ، واعتبر بمصير الماضين ، ونفعته الآياتُ ، وإذا قسا قلبُه بالشهوات والشبهاتِ غفل عَمَّا ينفعه ، وعَمِى عن البراهين ، ولقد كان زعماءُ الشركِ المعاندون يمرُّون بقرى قوم لوط ويرون آثار العذاب ، وعاقبة العناد ولا يعتبرون.

فسبحان القادرِ على كل شىء ، الذى قامت البراهين شاهدةً بوحدانيته وعظمته وكمالِ حكمته . .

وفى ذلك عبرة لأولى الألباب.

***

٧ - الهوى إله يعبد من دون الله
وفى آيات الكون آيات شاهدة بوحدانية الخالق العظيم

الهَوىٰ إلهٌ يُعبد من دون الله - أعاذنا الله - وأهواءُ الناس متعددة ومشاربُهم مختلفة ، وأفكارُهم متفاوتة متضاربة ، ولذا تكثر النِّحلُ والفرقُ والأحزاب ، ويظهر التناقضُ ، ويَجرى التناحر ، وتقوم الحروب ويسود الشقاق.

ولذا كان الناس فى أشدِّ الحاجة إلى هداية الدين الحق الذى جاء به الوحى من عند رب العالمين ، ولو أن الناس جميعًا آمنوا بالإسلام واعتصموا به ، وجعلوا أهواءهم تبعًا له ، لتوحَّد الفكرُ والاتجاه ، ولعُصِم البشر من مزالق الشرك ، وتعددِ الآلهة ، وكثرةِ الفرق والنحل.

الإسلام رَحمةٌ بالناس جميعًا :

ولقد أرسل الله عز وجل نبيه محمدًا ﷺ رحمةً للعالمين ، يدعو الناسَ جميعًا إلى الانضواء تحت لواءِ الإسلام ، وتَرْكِ ما كانوا عليه من الشرك والإلحاد ، ونبذِ القيم الفاسدة ، ليعيشوا جميعًا فى ظلال رحمةِ دين الله إخوةً متحابين متعاونين متساوين يحترمُ بعضُهم بعضًا ، ويَلين بعضُهم لبعض ، ويرحم كبيرُهم صغيرَهم ، ويحترمُ الصغيرُ الكبير ويُعين القوىُّ الضعيفَ فى تعاطفٍ وتكافل وتراحم .

لقد بادر إلى الدخول فى الإسلام من طَهُر قلبُه من الحقد والحسد والكبر ، أما زعماءُ السوء وقادةُ الضلال من المتكبرين فقد صدُّوا عن سبيل الله ، وسعوا بكلِ ما يملكون من حيلة للنيل من النبى ﷺ ، وقد

بين الله عز وجل فى كتابه ما لقيه نبيُّه من الأذى ، وما أبداه أهلُ الضلال من تعنُّت وسُخرية واستهزاء ليكونَ فى ذلك عبرةٌ لأولى الألباب من أهل الإيمان ليصبروا على الحق كما صبر نبيُّهم ﷺ ، وليعلموا أن العاقبة للمتقين.

وفى سورة الفرقان يخبر الله عز وجل عن استهزاء المشركين بالرسول محمد ﷺ إذا رأوه ، فيقول قائلهم : ﴿أهذا الذى بعثَ اللهُ رسولا﴾ أى على سبيل التنقُّص والازدراء ـ قبحهم الله ـ . . وما نالوا من النبى محمد ﷺ بالأذى إلا لأنه يدعوهم إلى التفكُّر فيما هم عليه من ضلالة وعمًى ليتركوا عبادةَ الأصنام والأوثان ، لأنها لا تملك نفعًا ولا ضرًّا ولكن الضالين منهم أصروا على حَبْس أنفسهم على عبادتها كِبرًا وعنادًا ولنتدبر قوله تعالى : ﴿وإذَا رَأَوْكَ إن يتَّخذُونكَ إلَّا هُزوًا ، أهٰذا الذِى بعَث اللهُ رسولًا * إن كَادَ ليُضلُّنا عَن آلهتنَا لوْلَا أن صَبرنَا علَيها﴾ [٤١، ٤٢] يعنون أنه كاد يُثنيهم عن عبادة أصنامهم بما يقدمه لهم من الدليل والبرهان على وحدانية الله عز وجل ، وعلى بطلان الشرك والإلحاد ، ولكنهم كما عبَّروا عن أنفسهم صبروا ، وتجلدوا ، واستمروا على عبادتها ، فتوعدهم الله عز وجل على سوء مسلكهم وهددهم ﴿وسوْفَ يعلَمُون حينَ يرونَ العذابَ مَن أضلُّ سبيلًا﴾ [٤٢] أى من أضل دينًا أهم أم محمد؟

ثم قال تعالى لنبيه منبهًا له أنَّ مَن كَتب الله عليه الشقاوة والضلال، لا يَهْديه أحدٌ إلا الله : ﴿أرأيتَ من اتَّخذ إلـٰهه هَواه﴾ [٤٣] أى مهما استحسن من شىء ورآه حسنًا فى هوى نفسه كان دينَه ومذهَبه ، كما قال تعالى من سورة فاطر: ﴿أفمن زيِّن لهُ سوءُ عَمله فَرآه حسنًا فإنَّ اللهَ يُضلُّ من يشآءُ ويَهدِى مَن يشآءُ فَلا تَذْهبْ نفسُك علَيهم حَسرات﴾ [٨] ولهذا

قال الله لنبيه فى سورة الفرقان : ﴿أفأنتَ تكونُ علَيه وكيلًا﴾ [٤٣] أى حفيظًا وكفيلاً حتى تردَّه إلى الإيمان وتُخرجه مما هو فيه من الفساد أى ليست الهدايةُ والضلالة موكولتين إلى مشيئتك ، وإنما عليك يا محمد التبليغ ، فالآيةُ تسليةٌ للنبى ﷺ .

لقد نقل الكلبىُّ وغيرُه أن الرجل فى الجاهلية كان إذا هَوِىَ شيئا عبده من دون الله فإذا رأى أحسنَ منه فى نظره ترك الأول وعبد الأحسن فهو يتخذ إلـٰهُ بهواه ، وقال ابن عباس : الهوى إلـٰهٌ يعبد من دون الله ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿أرأيت من اتخذ إلـٰهه هواه﴾.

قال مقاتل عن قبح الشرك والهوى:

إن البهائم تَعرف ربَّها ، وتَهتدى إلى مراعيها ، وتنقاد لأصحابها التى تعقلها ، وإن الملحدين والمشركين المعاندين لاينقادون ، ولا يعرفون ربَّهم الذى خلقهم ورزقهم لذا ذمَّ اللهُ عزَّ وجلَّ الذين لا يسمعُون الحقَّ سماعَ قبول ، ولا يفكِّرون فيما يدعوهم إليه الوحْى فيعقلونه فقال سبحانه : ﴿أَمْ تَحْسبُ أنَّ أكثرَهم يَسمعُون أو يَعقلُون إنْ هُم إلَّا كالأنْعام بَلْ هُمْ أضَلُّ سَبيلًا﴾ [٤٤] أى أسوأُ حالاً من البهائم السارحة ، فإن تلك تعقلُ ما خُلِقَت له ، وهؤلا خُلقوا لعبادة الله وحده لا شريكَ له وهم يعبدون غيره ، ويُشركون به ، مع قيام الحجَّة عليهم ، وإرسالِ الرسل إليهم.

من براهين الوحدانية وكمال الحكمة والتدبير:

بعد هذا انتقل السياقُ فى سورة الفرقان إلى بيان الأدلةِ الدالةِ على وجود اللهِ عز وجل ، وقدرته التامة ، ومنها خلقُ الأشياء المختلفة والمتضادَّة فقال : ﴿ألَمْ تَر إلىٰ ربِّك كيفَ مَدَّ الظلَّ ولوْ شآءَ لجعلَهُ ساكنًا ثمَّ جعلْنا الشمسَ علَيه دَليلًا * ثُم قَبضْناه إلينَا قَبضًا يَسيرًا﴾. [٤٥، ٤٦]

ويجوز أن تكونَ هذه الرؤيةُ من رؤية العين ، ويجوز أن تكونَ من العلم ، ومدُّ الظلِّ من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ثم تنسَخُه الشمسُ ﴿ولو شاء لجعله ساكنا﴾ أى لو شاء ربُّك لجعل الظلَّ دائمًا مستقرًّا لا تنسخُه الشمس ، وقيل : المعنى لو شاء لَمَنَع الشمسَ الطلوعَ ﴿ثم جعلنا الشمس عليه دليلا﴾ أى جعلنا الشمسَ بنسْخها الظلَّ عند مجيئها دالةً على أن الظل شىءٌ ومَعْنًى ، لأن الأشياء تُعْرفُ بأضدادها ولولا الشمسُ ما عُرف الظلُّ ، ولولا النورُ ما عُرفت الظلمةُ ، والتضادُّ الموجودُ فى حياتنا وفى الكون من حولنا من البراهين الدالةِ على وجود المدبر الحكيم ذى القدرة والعظمةِ وعلوِّ السلطان ، وعلى تفرده سبحانه بالألوهية والربوبية ، وعلى استحالةِ وجود الشريك والنظير والندّ والحاجة إلى الولد والصاحبة.. سبحانه.. سبحانه. ﴿ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا﴾ أى الظلّ الممدود ، فإنه إذا طلعت الشمسُ صار الظلُّ مقبوضًا وخَلَفه فى هذا الجو شعاعُ الشمس فأشرق على الأرض وعلى الأشياء إلى وقت غروبها.

قال أبو موسى : «قبضا يسيرا» أى قليلاً قليلًا ، وقد قيل : إن هذا القبض وقع بالشمس ، لأنها إذا طلعت أخذ الظل فى الذهاب شيئًا فشيئًا .. فسبحان الذى جعل لنا الليل راحة وسكنًا ، وجعل لنا النهار ننتشر فيه للمعاش والمكاسب وفيه الحركةُ والعمل .. وهذا من آيات قدرته وحكمته وكمال رحمته بعباده : ﴿وَهُو الذِى جعَل لكُمُ الَّليل لبَاسًا والنومَ سُباتًا وجَعل النهارَ نُشورًا﴾. [٤٧]

ومن معانى السبت: القطعُ ، ففى النوم انقطاعٌ عن الاشتغال وقطعٌ للحركة لراحة البدن.. وفى النوم آياتٌ على القدرة والرحمة.

ومن آيات قدرته التامة وسلطانه العظيم ، أنه تعالى يرسل الرياح

مبشرات أى بمجىء السحاب بعدها ، والرياح أنواع فى صفات كثيرة من التسخير ، فمنها ما يثير السحاب ، ومنها ما يحمله ، ومنها ما يسوقه ومنها ما يكون بين يدى السحاب مبشرًا ، ومنها ما يكون قبل ذلك يقمُّ الأرض ويكنسها ، ومنها ما يُلقِّح السحاب ليمطر ، ولنتأمل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بينَ يَدَى رحمته وأَنزلْنا من السمآءِ مآءً طَهورًا﴾ [٤٧] أى يُتطهر به ، كما يقال : وَضُوء للماء الذى يُتوضأ به والمطر روح الأرض يُحييها الله به ، وفى حياة الأرض بالنبات والزروع رحمة بالناس والأنعام ، ولولا الماء لهلك الناس ، فطوبى لمن يشكر المنعم ويوحده : ﴿لِنُحْيِىَ بِه بلدةً مَيْتًا ونُسْقِيَه مِمَّا خلقْنا أنعامًا وأناسىَّ كثيرًا﴾ [٤٩] أى بشرًا كثيرًا . . وقد جعل الله فى ذلك عبرة لذوى العقول ليذكروا بإحياء اللهِ الأرضَ الميتةَ أنه قادر على إحياء الأمواتِ والعظام والرفاتِ . . . أو ليذكروا بنزول المطرِ وتصريفِه بينهم بتنويع الانتفاعِ به فى الشُّرب والسقْى والزراعات به والطهارات والغسل وغير ذلك من الأغراض وتصريفه أيضًا حسب الإرادة والحكمة فيأتى مرةً رذاذًا خفيفًا وأُخرى وابلاً غزيرًا ، ويصيبُ بلدةً أو أرضًا مرةً ، ويمرُّ عليها وَيجاوزها إلى غيرها مرةً أخرى ، ليذكروا بذلك وغيره نِعَم الله ، ويعلموا أن مَن أنعم بها لا يجوزُ الإشراكُ به ، ولنتدبر : ﴿ولقد صَرَّفناه بينهُمْ ليذَّكَّروا فأبىٰ أكثرُ الناسِ إلَّا كُفورًا﴾ .

اللهم اجعلنا من أهل التدبُّر والتفكر والاعتبار.

***

٨ - من براهين القدرة والرحمة وبالإسلام تنال كرامة الدنيا والآخرة

حياةُ القلوب وحياةُ الأبدان:

قال الله تعالى : ﴿ولقدْ صرَّفناهُ بَينهُم لِيذَّكَّروا فأبَىٰ أكثرُ الناسِ إلَّا كُفورًا﴾ . [الفرقان: ٥٠]

وفيها يلفت الله عز وجل عباده إلى آيات شاهدةٍ بوحدانية الله سبحانه وبقدرته وبكمال رحمته ، وفيها تذكيرٌ وتنبيه لأولى الألباب ، وأصحابِ العقول الراجحة للتأمل والتدبر ليكون الإيمان عن دليل وبرهان.

وإن آيات الله فى كتابه العزيز تُنير للعقل طريقه ، وترشده وتسدده وتدله على وجود الله ، ووحدانيته ، وكمال تدبيره ، وحكمته ، كما أن القرآنَ يُحيى قلوبَ المتدبرين بما فيه من العبر والعظات والحكم ، وفيه بيانُ الحلال والحرام ، والنافع والضار ، وأسباب الفلاح والنجاح والفوز برحمة الله عز وجل . . فمن تدبر راغبًا فى معرفة الحق ، حريصًا على الخير ، انتفع ببركة القرآن العظيم ، ومن أعرض عن الهدى شَقى وباء بالخسران : ﴿ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورًا﴾ يعنى صرَّفنا القرآنَ وفيه الدليلُ والبرهان ، وفيه الحكمُ والأحكام ، والعبرُ والعظات ، وإثباتُ البعث للحساب والجزاء فأبى أكثر الناس إلا جحودًا له ، وتكذيبًا به .

وكما أن فى القرآنِ العظيم رحمةً إذ به حياةُ القلوبِ والنفوسِ فإن فى المطر رحمةً إذ به تحيا الأرضُ ويُسقى الحيوانُ والإنسانُ، وفيه آياتٌ بيِّنات على قدرة الخالقِ وكمالِ حكمتِه وتدبيره.. لهذا قيل: ﴿ولقد صرَّفناه بينهم﴾

أى المطر ، وفى معنى التصريف ما جاء عن ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم: ليس عامٌ بأكثرَ مطرًا من عام ، ولكن الله يُصرِّفه حيث شاء ، فما زِيد لبعض نقص من غيرهم ، وفى هذا وغيرِه من أنواع التصريف وإحياءِ الأرض الميتة ما يذكِّر بقدرة الخالق على إحياء الأموات وما يذكِّر بقدرة الله على حبس المطر عمَّن يشاء ، فيبادر أصحاب العقولِ المستقيمة إلى التوبة ، والإقلاع عن الذنوب ، وإلى شكر المنعم ، والإقرار بفضله ، والرغبة فيما عنده من الثواب.

الرحمة العامة :

إن الرحمة بالوحى الذى أنزله اللهُ على نبيه محمدٍ ﷺ رحمةٌ عامة إذ به تحيا النفوس والقلوب ، كالرحمة بالغيث العام إذا جاء على قدر الحاجة وهو الذى تحيا به الأبدان والبلدان ، وقد اقتضت حكمة الله عز وجل أن يكون رسوله إلى الناس جميعهم وخاتمُ رسله وأنبيائه هو محمدًا ﷺ ولو شاء سبحانه لأرسل لكل قرية من يُنذرهم ويبلغهم وحيه، ولنتدبر قوله تعالى : ﴿ولوْ شِئنا لبعثْنا فِى كلِّ قرية نذيرًا﴾ [الفرقان: ٥١] أى رسولاً ينذرهم ، ويدعوهم إلى الله عز وجل ، ولكنا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع أهل الأرض ، وأمرناك أن تبلغ الناسَ هذا القرآن ، كما جاء فى سورة الأنعام : ﴿لأُنذِرَكم به وَمَن بلَغ﴾ [١٩] وفى سورة هود ﴿ومَن يكفُرْ به من الأحزابِ فَالنارُ موْعِدُه﴾ [١٧] . . وفى سورة الأنعام : ﴿ولِتُنذرَ أُمَّ القُرىٰ ومَن حوْلَها﴾ [٩٣] . . وفى سورة الشورى : ﴿وكذٰلِكَ أَوْحينآ إليْك قُرآنًا عربيًّا لتنذرَ أُمَّ القُرىٰ ومَن حَوْلَها﴾ [٧] . . وفى سورة الأعراف: ﴿قلْ يآ أيُّهَا الناسُ إنى رسولُ اللهِ إليكُم جميعًا﴾ [١٥٨] وفى الصحيحين «بُعثتُ إلى الأحمرِ والأسود»

وفيهما : «وكان النبى يُبعثُ إلى قومه خاصةً وبُعثتُ إلى الناس عامَّة».

وقد أمره اللهُ عز وجل أن يجاهد المشركين والملحدين بالقرآن العظيم جهادًا عظيمًا لا يُخالطه فتور ، وبعدم طاعتهم فيما يدعونه إليه من اتباع آلهتهم إذْ عرضوا عليه أن يعبدوا إلـٰهه أيامًا وهو يعبد آلهتَهم أيامًا ، ولنتدبر ﴿فَلاَ تُطعِ الكافِرين وجَاهِدْهم بِه جهادًا كبيرًا﴾ .

ومن آيات الرحمة وكمال القدرة:

ثم عاد السياق من سورة الفرقان إلى ذكر النعم وما فيها من آيات بيناتٍ على كمال الرحمة وكمال القدرة ، ليلتفتَ ذوو الألباب فيزدادَ المؤمن إيمانًا ، ويعودَ إلى الغوىّ رشدُه ، وليتوبَ من ذنبه ، ويُقلعَ عن شركه وإلحاده.

وهيا نتدبر قوله تعالى: ﴿وهُو الذِى مَرَجَ البحْرَيْن هَٰذا عذْبٌ فُرَاتٌ وهَٰذا مِلْحٌ أُجاجٌ﴾ . [٥٣]

ومرج البحرين : أى خلطهما فهما يلتقيان ، يقال : مرجته إذا خلطته، وقال مجاهد : أرسلهما وأفاض أحدَهما فى الآخر ﴿وعذْب فرات﴾ أى حلو شديد العذوبة ﴿وهذا ملح أُجاج﴾ أى فيه ملوحة ومرارة ﴿وجعَل بينهُما برزخًا﴾ أى حاجزًا من قدرته سبحانه لا يغلب أحدُهما على صاحبه ﴿وحِجْرًا محجُورًا﴾ [٥٣] أى سِترًا مستورًا يمنع أحدَهما من الاختلاط بالآخر ، فالبرزخ : الحاجز ، والحِجر : المانع ، والله عز وجل يلفت عبيده إلى هذه الآية وما فيها من دلالة على وحدانيته ورحمته بعباده ، فمع التقاء مياهِ الأنهار بمياه البحار لا يَطغى أىٌّ منهما على الآخر فلا يعذُب هذا الملحُ بالعذب، ولا يملحُ هذا العذبُ بالملح

ولنتدبر قوله تعالى من سورة النمل : ﴿أمَّن جَعل الأرضَ قرارًا وجعَل خلالَها أنهارًا وجعَل لهَا رواسِيَ وجعلَ بين البحْرينِ حاجزًا أإلـٰهٌ مَّع اللهِ بلْ أكثرُهم لَا يعلَمُون﴾ . [٦١]

ومن آيات قدرته سبحانه وكمال حكمته أنه سبحانه خلق الإنسان من نطفة ضعيفة فسواه وعدله ، وجعله كامل الخلقة ذكرًا أو أنثى كما يشاء على مقتضى الحكمة ليكثرَ النسل ويبقىٰ النوع إلى أن يشاء الله : ﴿وَهُو الذِى خلَق مِن المآءِ بشرًا فجعلَه نَسبًا وصِهْرًا وكَانَ ربُّك قَديرًا﴾ . [٥٤]

وفى هذه الآية تعديدُ النعمةِ على الناس فى إيجادهم بعد العدم والتنبيهُ على العبرة فى ذلك.

والنسب والصهر : معنيان يعمَّان كلَّ قُربى تكون بين آدميين ، يقول ابن كثير : فهو فى ابتداء أمره ولدٌ نسيب ، ثم يتزوج فيصيرُ صِهرًا ، ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات ، وكل ذلك من ماء مهين ، وكانَ ربُّكَ علىٰ ذلكَ قديرًا أى على خلق ما يريده .

فتدبروا يا أولى الألباب .. وأقلعوا عن الشرك وانتهوا عن الإلحاد والإنكار وطهِّروا القلوب والنفوس بتوحيد الله وطاعته واتباع نبيه محمد ﷺ.

لا ينبغى لعاقل أن يعبد غير الله :

لما عدَّد الله النعم ، وبيَّن كمالَ قدرته عَجَّبَ من المشركين فى إشراكهم به مَن لا يقدر على نفْع ولا ضُرٍّ ولنتأملْ : ﴿وَيعبدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفعُهم ولَا يَضرُّهم وكَان الكافرُ علىٰ ربِّه ظَهيرًا﴾ . [٥٥]

لا تكونوا أعوانًا للشيطان :

وفى هذا إخبارٌ عن جهل المشركين الذين يعبدون الأصنامَ أو الكواكب أو القبور أو غيرَ ذلك من المخلوقات ، فالله هو الخالق وحده فكيف يُعبد

غيرُه بلا دليل يقودُهم إلى ذلك، ولا حجةٍ أدَّتهم إليه، بل بمجرد الآراء والتشهى والأهواء ، فهم يُوالون آلهتهم التى اتخذوها من دون الله ، ويقاتلون فى سبيلهم ، ويعادون الله ورسوله فيهم ، ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿وكان الكافر على ربه ظهيرًا﴾ أى عونًا فى سبيل الشيطان على حزب الله ، وحزبُ الله هم الغالبون ، كما قال تعالى : ﴿واتَّخذُوا من دونِ اللهِ آلهةً لعلَّهم يُنصَرُون *لَا يَستطِيعُون نَصْرَهُم وهُم لهمْ جندٌ مُحضَرُون﴾ [يس: ٧٤-٧٥] ، أى آلهتهم التى اتخذوها من دون الله لا تملك لهم نصراً وهؤلاء الجهلة للأصنام جندٌ محضَرون يقاتلون عنهم، ويدافعون عن معتقداتهم الفاسدة ، ولكن العاقبة والنُّصرةَ لدين الله وأوليائه المخلصين فى الدنيا والآخرة .

قال سعيد بن جبير : ﴿وكان الكافر على ربه ظهيرًا﴾ أى عونًا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك.

ثم قال الله تعالى لرسوله صلواتُ الله وسلامه عليه : ﴿ومآ أرْسلناكَ إلَّا مُبشِّرًا ونذِيرًا﴾ [٥٦] أى بشيراً للمؤمنين ، ونذيراً للكافرين ، مبشراً بالجنة لمن أطاع الله ، ونذيراً بين يدى عذاب شديد لمن خالف أمر الله.. أى وما أرسلناك وكيلا ولا مسيطرا.

﴿قُلْ مَا أسألكُم علَيه مِن أجْرٍ﴾ [٥٥] أى على هذا البلاغ وهذا الإنذار وما جئتكم به من الوحى والقرآن ، وإنما أفعل ذلك إذعانًا لأمر الله وابتغاء وجهه الكريم ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ [التكوير: ٢٨] ولتتدبر ﴿إلَّا مَن شآءَ أن يَتخذَ إلىٰ ربِّه سبيلًا﴾ [٥٥] أى طريقًا ومسلكًا ومنهجًا يقتدى فيها بما جئتُ به .. فمن اتبع دين الله نال كرامة الدنيا

والآخرة . . ثم أمر الله نبيه بالتوكل عليه وحده فى أموره كلها ﴿وتوكَّلْ علَى الحىِّ الذِى لَا يموتُ وسَبِّحْ بحمْدِه﴾ فهو سبحانه الدائم الباقى السرمدىُّ الأبدىُّ ، الحىُّ القيومُ ربُّ كل شىء ومليكُه ، اجعلْه ذخرك وملجأك ، وهو الذى يُتوكل عليه ، ويُفزع إليه ، فإنه الكافى والناصرُ والمؤيِّدُ والمظفِّر . .

نسأل الله عز وجل فضله وإحسانه ورحمته يوم القيامة.

***

٩- توكل على الحي الباقي وسبح بحمده تعش على هداية

إن السلامة والأمنَ فى حسنِ التوكلِ على الله، وتفويض الأمور إليه سبحانه ، والرضا بقضائه وقدره ، فهو سبحانه مالك أمورنا ، ولا يقع فى الكون إلا ما يريده عزَّ وجل ، وقد أمر الله نبيَّه والمؤمنين فقال سبحانه : ﴿وتوكَّل علىٰ الحيِّ الذى لا يموتُ وسبِّح بحمدِه وكفَىٰ بِه بِذنُوب عبادِه خبيرًا * الذِى خلَق السمٰواتِ والأرضَ ومَا بينهُما فِى ستَّةِ أيامٍ ثُم استَوىٰ علىٰ العرشِ الرحمـٰنُ فاسأَلْ بِه خبيراً﴾ . [الفرقان: ٥٥، ٥٦]

اختتمت سورةُ الفرقانِ بما ابتدأت به من تنزيه الله عن الولد والشريك كما جاء فى ختامها أيضًا آياتٌ مباركات رائعات فى وصف المؤمنين الصادقين الذين سماهم القرآن ﴿عِبادُ الرحمٰنِ﴾ . كما جاء فى السورة الكريمةِ وصفٌ لعناد المكابرين وجدَلِهم وحوارِهم ، ومطاعنهم فى النبوة والردُّ على مقالاتهم ودحضُها والكشفُ عن سوء تفكير المعاندين ، وسخافةِ عقولهم وانصرافهم عن الدليل والبراهين وإلقائهم الشبهات واللجوء إلى المفتريات مِمّا عرفناه فى الصفحات السابقة.

بعد هذا انتقل السياق إلى الأمر بحسن التوكل على الله ، وتفويض الأمور إليه وحده ، والثقة فيما عنده سبحانه ، إذ العاقبةُ لأولياء الله المتقين وسوء المنقلب للملحدين المشركين . يقول الله عز وجل : ﴿وتوكَّل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده﴾ أى لا تتكل على المعبودات التى اتخذوها من دون الله والتى لا تضر ولا تنفع ،ولا تتكل على حىٍّ

من البشر يُواسيك اليومَ ويموتُ غداً ، ويَنقضى أمرُه ، ويصيرُ إلى خالقه بل توكل على الحىِّ الذى لا يموت ، وسبِّح بحمده ، أى نزِّهه عن النقائص شاكراً لأنعمه ، حامداً لتفضله .

حقيقة التوكل ومعنى التنزيه :

وحقيقة التوكل هى اعتمادُ القلب على الله تعالى فى كل الأمور والاعتقادُ بأن الأسباب وسائطُ أمر بها سبحانه من غير اعتماد عليها، إذ خالقُ الأسباب والمسبَّباتهو الله وحده . . والتنزيُه : هو تقديس الله عز وجل وتبرئتُه من السوء وعما يصفه الكفار به من الشركاء ، والولد والند والاعتقادُ بأن كل ما خطر ببالك فالله عز وجل بخلاف ذلك ﴿**ليسَ كَمِثْله شَىء**﴾ . [الشورى: ١١]

﴿**وكفى به بذنوب عباده خبيرًا**﴾ فاللهُ خبير بذنوبهم ، وبأعمالهم ، وهو مجازيهم بها ، فلا تحزن يا محمد ولا تعجل عليهم، والله عز وجل هو القادر الذى أبدع خلْق السمٰوات والأرض ، وتفرَّد سبحانه بالملك والملكوت ومن كان هذا شأنَه فهو أحق مَن يُتوكل عليه ، وأولى من يُفَّوض إليه الأمر ، فالجدير بأن يُتوكل عليه هو الحى الذى لا يموت، القادرُ الذى خلق هذه السمٰوات التى تُظلنا ، والأرض التى تُقلنا ، وما فيهما من إبداع ونعمٍ وآياتٍ باهرات ناطقات بكمال تدبيره وسلطانه وحكمته سبحانه وتعالى : ﴿**الذى خلَق السمٰواتِ والأرضَ وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمنُ فاسأل به خبيرًا**﴾ .

إذا سألتَ فاسْأل الله وحده :

إنَّ العجب حقًّا ـ يا أولى الألباب ـ هو العجبُ مِمَّن يسألُ غيرَ الله ويطلبُ حاجتَه من الأموات أو الأصنام أو الشجر ، أو الشمس والقمر

أو غير ذلك من المخلوقات ، والجميعُ مسخَّر لما خُلق له ، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا .. واللهُ عز وجل هو خالق السموات وما فيها والأرض وما عليها ، وما بيْن السماء والأرضِ مِمَّا ذرأ وبثَّ سبحانه وبيده وحده خزائنُ الملك ، وهو سبحانه قريبٌ من عباده يسمع الداعى ويعلم السرَّ والنجوى ، ولا يقع فى الكون إلا ما يُريده سبحانه ، وهو سبحانه الرحمنُ بعباده ، وسعت رحمتهُ كلَّ شىء ، لولاها ما تنفَّس السمك فى الماء ، ولولاها ما وَجد المكابرون والمعاندون إلا الهلاكَ والشقاء، فبرحمته نعيش ، وبرحمته ينمو الجنينُ فى الرحم ، وبرحمته ترحم الوحشُ ولدها ، وبرحمته نجدُ الماءَ الزلال، وتُنبت الأرضُ الطيبات وترُسل السماءُ الماءَ مدرارًا، وتجرى الأنهارُ من تحتنا ، ولا ينقطع عنا الهواء.

ابحث عن الحق واحذر أهل الضلال :

احذر يا ذا اللب مَنْ يُضلُّك عن معرفة ربِّك ، ويسوقُك إلي الإلحاد أو الشرك ، واحذر أن تُساقَ كما تُساقُ السوائمُ لأنك إنسان مُكرَّم بالعقل والتمييز والقدرةِ على المعرفة ، فانظر فى الأدلة ، وفتِّش عن العلم النافع وانتفع بعقلك مهتديًا بنور الدين الحق ، مسترشدًا بآيات الله فى كتابه وآياتهِ فى نفسك ، وفى السموات والأرض ، وفى سعيك لمعرفة الحق والسؤالِ عن خالق الخلق ، اسأل عنه خبيرًا ، أى عالـمًا به سُبحانه وتعالى ، أى بصفاته وأسمائه ، وما يليق به عز وجل من نعوت الجلالِ وصفات الكمال ، وعدمِ مشابهته للمخلوقين .. سبحانه.. سبحانه .. تقدست ذاتُه ، وجلَّت صفاتُه ، وتعالت أسماؤه ، وعظُمت آلاؤه ، ودلت على قدرته ورحمته آياتُه ، وبرهنت على تفرده بالإلٰهية أرضُه وسمواتُه ، وما فيهما من عجائب الصنع ، وعظمةِ الخلق ، لا إلٰهَ إلا هو ربُّ العالمين

والمنعمُ عليهم ، لا معبود بحق سواه : ﴿سبحانَه وتعالىٰ عمَّا يُشركون﴾ [النحل: ١] عَلَّم سبحانه عبادَه أن يعبدوه وحده فقال : ﴿إننى أنا اللهُ لَا إلٰهَ إلَّا أنا فاعبُدْنى * وأَقِم الصلاةَ لذكْرى﴾ [طه: ١٤]

وقال : ﴿وقَضَىٰ ربُّك ألَّا تَعبدُوا إلَّا إيَّاه﴾ [الإسراء : ٢٣]، وإن جميع المرسلين دعَوا الناس إلى عبادته وحده ، فهو الرحمنُ المستحقُّ وحده للخضوع والإذعان ، والخوفِ والرجاء ، ولنسمعْه سبحانه يقول لنبيِّه من سورة الزخرف : ﴿واسأَلْ مَن أَرسَلْنا مِن قَبلِكَ مِن رُسُلِنا أَجعَلْنا مِن دُونِ الرحمٰنِ آلهةً يُعبدُون﴾ [٤٥]

وإذا قيل :

ما المرادُ بسؤال الرسلِ فى سياق الاحتجاج على من يجعلون لله شريكًا؟ . . وهل سأل النبىُّ محمدٌ ﷺ الرسل ؟

أمّا عن المراد بسؤال الرسل هذا السؤالَ فهو الاستشهادُ بإجماع المرسَلين على التوحيد والتنبيهُ على أن النبىَّ محمدًا ﷺ دعا إلى ما دعا إليه جميعُ الأنبياء والمرسلين ، فكان الواجبُ على أهل الكتابين التوراةِ والإنجيلِ وغيرهما أن يبادروا إلى الإيمان به والدخولِ فى دينه ﷺ . وقد ورد أن سبب هذا الأمرِ بالسؤال أن اليهودَ والمشركين قالوا للنبى ﷺ : إن ما جئتَ به مخالفٌ لمن كان قبلك ، فأمَره اللهُ بسؤاله الأنبياءَ على جهة التوقيفِ والتقريرِ لا لأنه كان فى شكٍّ منه .

أما سؤال النبى ﷺ الرسلَ فقد قال به بعض الصحابة والتابعين : قال سعيد بن جبير فى الآية : لقى الرسلَ ليلة أُسرى به ، وروى عن قتادة قوله : سألهم ليلة أُسرى به ، فقد لَقِى الأنبياء ، ولقى آدمَ ، ومالكًا

خازن النار . . وفى رواية جاءت فى القرطبى أن النبى ﷺ بعد أن أمَّهم فى بيت المقدس ركعتين ، قام فقال : «إن ربى أوحى إلىَّ أن أسألكم : هل أُرسِل أحدٌ منكم يدعو إلى عبادة غير الله ؟ فقالوا : «يا محمد ، إنا نشهد أنَّا أُرسلنا أجمعين بدعوةٍ واحدةٍ أن لا إلـٰهَ إلا الله وأن ما يعبدون من دونه باطلٌ ، وأنكَ خاتم النبيين ، وسيدُ المرسلين» .

وفى رواية ابن عباس أنهم كانوا سبعين نبيًّا ،وأنه ﷺ قال لجبريل عليه السلام : «لا أسأل قد اكتفيتُ» أى لأنه كان أعلمَ بالله منهم ـ ﷺ ـ ولا شك أن فى كلتا الروايتين دلالةً على الحال وهو أن جميع الأنبياء بُعثوا بالتوحيد ، وأن النبىَّ محمدًا ﷺ هو أوثقُ الأنبياء إيمانًا وأعظمُهم يقينًا . . وأن الذى يَنظر فى الملل السابقةِ ويفحصُ فى الكتب الصحيحةِ يجد ما أمر اللهُ به عبيده ، كما فى قوله تعالى من سورة التوبة : ﴿وما أُمروا إِلَّا لِيعبدُوا إِلٰهًا واحدا لا إِلـٰهَ إِلَّا هو سُبحانَه عَمَّا يشرِكون﴾ [٣١]

اللهم اجعلنا من أهل التوحيد ،واحشرنا على دين نبينا محمد ﷺ وعلى ملّة أبينا إبراهيم عليه السلام.

***

١٠- الرحمن فاسأل به خبيرا

الإلـهُ واحد:

لقد شهد الله عز وجل لنفسه بالوحدانية فقال: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّه لَا إِلـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران:١٨] فهو سبحانه الإلـهُ الواحد الذى يتألَّه إليه الخَلقُ فى حوائجهم ، أى يلجئون إليه وحده يسألونه ، ويستغيثون به ، ويتوكلون عليه ، ويرجون رحمته ، ويخافون غضبه وانتقامه ، ويتضرعون إليه وحده عند شدائدهم ، وبيْن يديه سبحانه يتذللون راغبين راهبين ، لا ملجأ للعبيد إلا إليه سبحانه ، فهو خالقُهم ومدبرُهم ومصرِّفُهم ، ومالكُ أمورهم ، وإليه مصيرهم ، ولا يملك أحد معه سبحانه شيئًا ، فالكلُّ عبيدُه ، والكلُّ مسخَّر لما خُلق له على مقتضى حكمته وحده ، لا معبود بحق غيره ، وقد شهدت الملائكة بأنه لا إله إلا الله ، وقد عاينت من آيات قدرته وعظمته ، وبراهينِ كبريائه وكمال سلطانه وحكمته ما عاينت ، فأقرت بالتوحيد ، وأذعنت لربها ، وخضعت لأمره سبحانه ، ويشهد لله بالوحدانية أهلُ العقل والعلمِ والحكمة الذين تفكروا فى ملكوت السموات والأرض وتدبروا فى النفس الإنسانية ، واستدلوا بجمال الخلق وعظمته واتساقه على وحدانية الخالق ففروا إلى الله منيبين إليه متبرئين من حولهم وقوتهم، ولنتدبر آية آل عمران : ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّه لَا إِلـٰهَ إِلَّا هُوَ والملآئكةُ وأولُوا العِلْم قائمًا بالقسط لَا إِلـٰهَ إِلَّا هُوَ العزيزُ الحكيمُ﴾. [١٨]

إِجالَة الفكر فى آيات الله :

إنك - يا ذا اللب - لكى تعرف ربك ، ويزدادَ يقينُك ويطمئنَّ قلبك

عليك أن تُطيلَ الفكر فى آيات الله، وفى كلامه سبحانه فهو الذى يَهديك، ويَشفى قلبك ، ويُزيل الغشاوة عن الفؤاد ، ويبعثُ العقل على الفكر فى السموات وآياتها ، والأرض وما فيها ، والدوابِّ وأشكالها وألوانها وطباعها وغير ذلك من المخلوقات التى تشهد لبارئها بكمال القدرة ، وكمال الرحمة وكمال الحكمة والتدبير.. سبحانه.. سبحانه .

وعليك يا ذا اللب أن تلجأ عند حاجتك إلى المصادر الصحيحة من العلوم النافعة ، والعلماءِ الذين عرفوا ربهم فوحدوه ، وأطاعوه ، ونزهوه ومن قبيل ذلك انتفاعُك بقصص الرسل والأنبياء والصدّيقين والصالحين الذين نظروا فى الأدلة ، وساروا وراء البرهان ، وكانوا أعلم الناس بالله وبصفات كماله ، ونعوت جلاله.

من صور العناد والتعنُّت :

وَهَيَّا ننظر إلى صورة من صور العناد ، وعدم استخدام العقل والفكر استخدامًا سليمًا وصحيحًا وذلك فى الآية التى جاءت بعد قوله تعالى : ﴿الرحمنُ فاسأل به خبيرًا﴾ إذ يقول الحق تبارك وتعالى بعدها : ﴿وإذَا قِيلَ لَهُم اسجُدوا لِلرحْمَٰن قالُوا وما الرحمنُ﴾ [٦٠] أى إذا قيل لهم اسجدوا لله وحده ، واجعلوا خضوعكم له وحده ، لأنكم بفضل رحمته تتقلبون فى نعمه فكيف تجحدون فضله ؟ وكيف تعبدون غيره ؟ قالوا على جهة الإنكار والتعجب ﴿وما الرحمن﴾؟ ، قالوا ذلك للنبى محمد ﷺ ، كما قال مَنْ قبلهم من أصحاب موسى عليه السلام لـمَّا قال لهم : إنى رسول رب العالمين فكان الجواب: ﴿وما ربُّ العالمين﴾.

[الشعراء: ٢٣]

ثم زاد المشركون فى العناد فقالوا للنبى محمد ﷺ : ﴿أنَسجدُ لما تأمرُنا وَزادهُم نُفوراً﴾ اى زادهم ما تحدَّث به القائلُ ناصحًا ومخلصًا وراغبًا فى الخير لهم ، بقوله ﴿اسجدوا للرحمـٰن﴾ زادهم هذا نفوراً من الإيمان الصحيح ، وعن الدين الحق ، فكانوا كلما رأوا الرسول ﷺ والمؤمنين ساجدين تباعدوا عنهم منكرين مستهزئين . . وكان بعض الصالحين من السلف إذا قرأ هذه الآية يقول : «إلهى زَادَنِى لك خضوعا ما زادعِداك نفوراً».

من آيات القدرة :

وتعود الآياتُ من سورة الفرقان تلفتُ أولى الألباب والبصائر إلى بعض آياتِ الله فى الكون للاستدلال على عظمة الخالقِ بعظمة الخلق : ﴿تَبارك الذِى جَعَل فِى السمآء برُوجًا وجعَل فِيها سِراجًا وقمراً مُنيراً﴾ . [٦١]

، فالبروجُ : هى الاثنا عشر برجًا التى تَحِلّ بها الشمس فى الفصول الأربعة ،وبتتابعها على الجو يتغير بين الحرارة والبرودة ، كما يطول النهار معها ويقصرُ ، وتأثيرُ كلٍّ ذلك فى الكون يبدو فى أشياء كثيرة، منها نضجُ الثمار ، وإدراكُ الزرع ونماؤه ، وهذا هو السر فى البركة المفهومة من قوله تعالى : ﴿تبارك الذى جعل فى السماء بروجًا﴾ أى إن هذه البركات والخيراتِ ممن جعل فى السماء بروجًا ، وجعل فيها سراجا وقمرًا منيرًا ، سبحانه وتعالى جل شأنه وتباركت أسماؤه.

والسراج : هو الشمس المفهومة من الآيات الأخرى : ﴿وجعل الشمس سراجا﴾ . [نوح: ١٦]، ﴿وجعلنا سراجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣]. وفى تسمية الشمس بالسراج ، ووصفِ القمر بالنور إشارةٌ إلى حقيقة

علمية ، وظاهرةٌ فلكية مقررة ، وتلك الظاهرة فى الفرق بين الضوء والنور ، فالشمسُ سراجٌ ، وسراجٌ وهَّاج أى فيها الضوء ، وفيها الحرارة ، والقمرُ نور ، أو القمر منير ، أى يستمد نوره من ضوء الشمس وحرارتَه من حرارتها، لأن القمر جسمٌ مُعتم ، هذه الحقيقةُ العلمية يقررها القرآن الكريمُ فى قوله تعالى ﴿جعلَ فِيها سراجًا وقمرًا منيرًا﴾ أى نوره من ضوء السراج.

تدبروا هذا يا أولى الألباب واهتفوا بقلوبكم : سبحان الخالقِ الحكيم المدبر الذى نطقت آياتُه بعظمته ، وكمالِ رحمته ، وعلمِه وقدرته.

وهيا بنا نتدبر بعضَ الحكمة فى أن جعل الله عز وجل كلَّ واحدٍ من الليل والنهار يَخلُفُ صاحبَه ، ويقع ذلك على نظام بديع، وسَنَن لا يتخلّف ، واتساقٍ فى كل فصلٍ من فصول العام يُثير العجب ، ويدعو إلى الإيمان بأن لهذا النظام مدبِّرًا حكيمًا عليمًا ، عظيمَ القدرة، واسعَ السلطان ، لا يغفل ولا ينام، ولا شريكَ له فى خلْق وتدبير ، بل هو واحد أحد يجب أن يُشكر ولا يكفر ، وأن يعبد وحده ، وأن يطاع رسولُه ، وأن يُتبع وحيُه . هيا ـ يا أصحاب العقول الراجحة ـ نتدبر قوله تعالى : ﴿وهُو الذِى جعلَ الليلَ والنهارَ خِلْفةً لمنْ أراد أن يَذَّكَّر أَوْ أَراد شُكورًا﴾ [٦٢] بعد أن لفتتنا الآيةُ السابقة إلى البركات التى نعيش فيها من وراء اختلاف فصول السنة ، وتنوُّعِ الجوِّ بين البرودة والحرارة تبعا للبروج والمنازل التى جعلها الله فى السماء ، ولِمَا أودع الله فى الشمس من الحرارة والضوء ، والنهارُ تابعٌ لها ، ولِمَا فى نور القمرِ من منافعَ وهو من آيات الليل..

آية من آيات القدرة :

إن الليل يخلف النهار ، والنهارَ يخلف الليل ، ليكون الليلُ لباسًا وأمنًا وراحةً ، وليكونَ النهارُ معاشًا وسعيًا وكسبًا للرزق ولحركة الأحياء . . ففى ذلك آيةٌ على القدرةوبرهانٌ على الحكمة والرحمة . . كما أن الليل والنهارَ مختلفان فى الظلمة والضوء ، وفى الزيادة والنقصان يأخذ أحدُهما من الآخر تبعًا لفصول السنة على تدبير محكم ، ونظامٍ عجيب، وتلك آيةٌ بينة على وجود المدبر الحكيم.

كما أن الليل والنهار ﴿خلفةً لمن أراد أن يذكَّر﴾ أى يتذكرَ فيعلمَ أن الله لم يجعله كذلك عبثًا فيعتبرَ فى مصنوعات الله ، ويشكرَ الله تعالى على نعمه عليه فى العقل والفكر والفهم ، فيذكرَ عظمة الله وهو يتدبرُ النظام الكونىَّ العجيبَ كالقمر والنجوم فى الليل ، والشمس وآثارها فى النهار . . وغير ذلك مما يجلُّ عن الحصر من الآيات وما فيها من نعم وبركات . .

نسأل الله يقينًا صحيحًا ، وإيمانًا صادقًا . .

***

١١ - طوبى لمن وعظه تعاقب الليل والنهار

سؤال ؟ .. ما الحكمةُ فى أنَّ كل واحدٍ من الليل والنهار يخلف صاحبه على سَنن دقيق ونظامٍ بديع ، مِمّا يدلُّ على القدرةِ والرحمةِ وكمال الحكمةِ والتدبير؟

إن الله عز وجل جعل الليلَ والنهارَ خِلفة ، أى يخلُف أحدهما الآخرَ إذا ذهب هذا جاء ذاك وجعل فى ذلك عِبرًا وآياتٍ بيناتٍ تهزُّ قلوبَ ذوى البصائر ، وتنيرُ لهم العقل والطريق ، وتهذبُ الضميرَ وتصقلُه ، وتدفعُ به فى طريق الكمال الإنسانى لمن تدبر ، ووعى ، واعتبر ، ورجع إليه رشدهُ ، فأقرَّ بفضل المنعم ، وشكر وأناب.

عبرة توقظ ضمائر ذوى البصائر :

ومن الآيات أنْ جعل اللهُ الليل سكنًا ، والنهارَ معاشًا ، وأنْ جعلهما أيضًا مختلفين فى الضوء والظلمة ، والطولِ والقصر، وفى توالى الليل والنهار على العاقل المتدبر عظةٌ وعبرة تنبىء بأن العمر ينقضى على عجل، ولا ينبغى للعاقل أن تسوء أعماله ، وتتراكمَ سيئاتُه ، ويطولَ به التقصير فى طاعة الحكيم الخبير ، فتسوءَ العاقبة .. إنَّ العاقل إذا تدبر ذلك علم أنه لم يُخلق عبثًا ، وبادر إلى التوبة ، وشمَّر عن ساعد الجِد فى العبادة ، فإن فاته شىء من الخير فى الليل أدركه بالنهار ، ومَن فاته وقتُ العبادة نهارًا أدركه ليلًا ، فالإنسانُ الذاكر المتذكر ، والعبد الشاكر هو الذى لا يهمل أمرَ آخرته ، فإذا فاته شىء قام به ، فإذا كان لا يُحسنه نهارًا أحسنه ليلًا ، ومن كان لا يحسنه ليلًا اجتهد فيه نهارًا ، أما أن يترك التنافس فى المبرات ، والاجتهادَ فى الطاعات مرةً واحدة فيكونَ

غافلاً عن ذكر الله وشكره وتقديم ما ينفعه فلا . . ولا ينبغى لعاقل أريب أن يعيش بلا تذُّكر ، ولا تجديدِ توبة ، ولا تليينِ قلب بذكر الله، وبالنظر فى العواقب فى يوم لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

إن عمرَ وابنَ عباس رضى الله عنهم قالا فى قوله تعالى : ﴿**وَهُوَ الذى جعلَ الليلَ والنهارَ خلفة لمن أرادَ أن يذكَّر أوْ أراد شكورًا**﴾.

معناه : من فاته شىءٌ من الخير فى الليل أدركه بالنهار ، ومن فاته بالنهار أدركه بالليل.

وجاء فى الصحيح : «ما من امرىء تكونُ له صلاةٌ بالليل فغلَبه عليها نومٌ فيصلِّى ما بين طلوع الشمس إلى صلاة الظهرِ إلا كُتِبَ له أجرُ صلاتهِ ، وكان نومُه عليه صدقةً» .

وجاء عند مسلم عن عمر أن النبى ﷺ قال : «مَن نام عن حِزْبِه أو عن شىءٍ منه فقرأه فيما بين صلاةِ الفجرِ وصلاةِ الظهرِ كُتب له كأنما قرأه من الليل» .

الأيام والليالى بلا عبادة عمرٌ ضائع ووبال :

إنّ من أعظم الغَبنِ وأفحشه أن تمرّ أوقاتُ الإنسانِ بلا عمل صالح ينفعُه ، ومن العبر والحكمِ مِمّا له صلةٌ بتعاقب الليل والنهار على الإنسان حتى تنقضِىَ الأعمار ، وينتقلَ الإنسانُ من الدار الباقية إلى الفانية ما سمعه ابن العربى من بعض السلف قال: «إن الله تعالى خلَق العبدَ حيًّا عالـمًا ، وبذلك كمالُه ، وسلَّط عليه آفةَ النوم ، وضرورةَ الحدث ـ أى البول والغائط ـ ونُقصانَ الخِلقة ، إذ الكمالُ للأول الخالق . . فما أمكن الرجلُ من دفع النوم بقلة الأكلِ وبالسهرِ فى طاعة الله فليفعلْ ، ومن

الغبن العظيم أن يعيش الرجل ستين سنةً ينام ليلَها فيذهب النصفُ من عمره لغوًا - أى بلا تسطير عملٍ صالح - وينام سُدسَ النهار راحةً فيذهب ثلثا عمره ويبقى له من الستين سنةً عشرون .. ومن الجهالة والسفاهةِ أن يُتلفَ الرجلُ ثلثى عمره فى لذة فانية ، ولا يُتلفَ عمره بسهر فى لذة باقية عند الغنىِّ الوفى الذى ليس بعديم ولا ظلوم .. سبحانه وتعالى جل شأنه ..»

حقًّا .. إنه من الغبن وظلم النفس أن تضيعَ معظمُ أوقاتِ الإنسانِ فى غفلةٍ ولو فى مباح فما بالُك بالمعاصى واللهوِ ونسيانِ حقوقِ ربِّ العباد؟ وإن العاقل الأريبَ من الشباب والشيب ، من النساء والرجالِ هو الذى يتعظُ بمرور الأيام ، وموتِ الأحباب ، والنومِ فى التراب ، فيجددُ الإيمانَ دائمًا بأن يلهج لسانُه بكلمة التوحيد ، وهى أفضل كلمة ينطق بها اللسان ويُكثر من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير متبعًا فى ذلك نبىَّ الهدى والرحمة ، ومطيعًا ربَّه فيما أمر به ، وهو سبحانه القائل : ﴿وسبح بحمده﴾ والقائل : ﴿فسُبحانَ اللهِ حينَ تُمسونَ وحينَ تُصبحُون* ولَه الحمدُ فى السمٰواتِ والأرضِ وعشيًّا وحينَ تُظهِرون﴾ [الروم: ١٧، ١٨] والقائل: ﴿واستَغْفِر لذنبِكَ وسبِّح بحمدِ ربِّك بالعشىِّ والإبكار﴾ [غافر: ٥٥] ولنتدبر دعوة ربنا إلى ذكرِه وتسبيحه على كل حال وفى كل آن : ﴿يآ أيُّها الذين آمنُوا اذكُروا اللهَ ذكرًا كثيرًا * وسبِّحوه بُكرةً وأصيلًا﴾ [الاحزاب: ٤١، ٤٢] ولنتدبر : ﴿فاذكُروا اللهَ قيامًا وقعودًا وعلىٰ جُنوبِكم﴾ . [النساء: ١٠٣]

وفى الحديث : «أفضلُ الذكرِ : لا إله إلا الله ، وأفضلُ الدعاء : الحمد لله». «رواه ابن أبى الدنيا في كتاب الشكر» عن جابر بن عبد الله رضى

الله عنه ، وإن أفضل الكلمات بعد القرآن الكريم وأعظمَها أجرًا وأثقلَها في ميزان الحسنات ، وهي من الباقيات الصالحات : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.. وفي الحديث الذي أخرجه البخاري : «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان ، خفيفتان على اللسان : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم».

إنه لمن سوء التدبير أن يَحرم إنسانٌ نفسه من الخير وهو قادر عليه .. أنطَق الله لسانه ، ووهبه قلبًا وحسًّا ، وأمدَّه بالفكر والفهم واليقظة .. إنه لمن سوء التدبير أن يَحرم إنسانٌ نفسه من السجود والخضوع ، ومن الذكر والدعاء وتلاوة القرآن ، ومن تجديد التوبة بكثرة الاستغفار.. إن عمرنا هو ثروتُنا فمن أضاعها هباء ندم وخسر ، ومن استدرك ، وأسِف على الإفراط والتفريط ، ورجع إلى ربه ، وأقبل على الطاعة شمله الرحمنُ بالعفو والإحسان ، وهذه وصيةٌ نبوية غالية لـمَّا سأله الأعرابي: أي الناسِ فضل . فقال ﷺ : «طُوبَىٰ لمن طال عمرُه وحَسُنَ عملُه» فقال: يا رسولَ الله ،أيُّ الأعمالِ أفضل ، فقال ﷺ : «أن تفارقَ الدنيا ولسانُك رَطبٌ بذكرِ الله».

ومن وصايا الحبيب الرحيم بأمته قوله ﷺ : «ذِكْرُ اللهِ عَلَمُ الإيمان وحِصْنٌ من الشيطان ، وبراءةٌ من النفاق ، وحِرزٌ من النار».

وقوله : «ما من عبدٍ يضعُ جنبَهُ على الفراش ويذكرُ الله إلا كُتب ذاكرًا إلى أن يستيقظ».

إن تثمير الوقت فيما يدوم نفعُه ، ويبقى أثرُه بالخير والسعادة والرَّوح والريحان عملُ أهلِ العقلِ والحكمةِ ، حتى يفوزوا بالرضوان في يوم يشقىٰ فيه أهلُ الغفلة والشركِ والإلحادِ ونسيان حقوق الرحمـٰن.

الليل عظيم القدر :

جاء فى الحكمة العربية:

دقاتُ قلبِ المرءِ قائلةٌ له إنَّ الحياةَ دقائق وثوان

وفى مرور الأيام عبر ، وإنَّ الليلَ عظيمٌ قدرُه ، جليلٌ خطرُه ، فمن ضيَّعه فى لهوٍ وباطل وغفلةٍ ضيَّع نفسَه ، ومن تنبه قبل فوات الأوانِ كان ذلك بُشرىٰ بحسن المآب .. أمر الله عز وجل نبيَّه بقيامه فقال: ﴿وَمِن اللَّيلِ فَتَهجَّدْ بِهِ نافلةً لَكَ﴾ [الإسراء: ٧٩] وقال : ﴿قُمِ اللَّيلَ إِلَّا قليلًا * نصفَهُ أو انقُص منه قليلًا * أَوْ زِدْ عَلَيه ورَتِّلِ القُرآنَ ترتيلًا ﴾ [المزمل: ٢:٤] وَمدح الله عز وجل أحبابَه من المؤمنين الصالحين على قيامه فقال : ﴿تَتَجافىٰ جُنوبُهم عَنِ المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهم خوفًا وطمعًا﴾ . [السجدة: ١٦]

وفى الحديث : «والصدقةُ تطفىء الخطيئةَ كما يُطفىء الماءُ النارَ ، وصلاةُ الرجل فى جوف الليل ، وفيه ساعةٌ يُستجاب فيها الدعاء .. » الحديث.

فطوبى لمن وعظه تعاقُبُ الليل والنهار ، فاستقام فكرُه ، وصلحَت سريرتُه وعلانيتُه ، وحسُن خُلُقُه ، وأدّى فرائضَ ربِّه ، واتّبع نبيَّه ، وجعل هواه تبعًا لما جاء به ﷺ.

***

١٢- عباد الرحمن أئمة يقتدى بهم فى الخير

جاء فى سورة الفرقان ذكرُ جهالات المشركين ، وطعنِهم فى القرآن الكريم ، وفى النبوة ، وإذا قيل لهم اسجُدوا للرحمٰن سخِروا وتعجَّبوا لجهلهم ، وزادهم قولُ الداعى بالسجود للرحمٰن نفوراً عن الدين لعنادهم وسفههم ، وسوءِ تفكيرهم ، وقد ساقت السورةُ الكريمة الأدلةَ على وجود الصانع وقدرته وحكمته وكمالِ رحمته بعباده ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى ذكر عبادِ الله المؤمنين وذكرِ صفاتهم ، وهم عبادُ الرحمن الذين هذَّبهم الدين ، وصقَل طِباعَهم اليقين ، وقد أضافهم المولى سبحانه إلى عبوديته تشريفًا لهم ، فقال: ﴿**وعبادُ الرحمٰنِ الذينَ يمشُون علىٰ الأرضِ هَوْنًا وَإذا خَاطَبَهُم الجَاهلُون قالُوا سَلامًا**﴾ . [الآيات من ٦٣ إلى آخر السورة الكريمة]

﴿**وعباد الرحمن**﴾ هم الذين صدق يقينُهم ، وأخلصوا الطاعة لربهم وزادتهم الآياتُ إيمانًا ، وسارعوا فى الخيرات ، وتنافسوا فى المبرات فهم أولياؤه ، وأحباؤه سبحانه وتعالى.

تشريف المؤمنين :

إنّ من أطاع الله ، وعبده ، وشغل سمعَه وبصرَه ولسانَه وقلبَه بما أمره فهو الذى يستحق اسمَ العبودية ، ومن كان بعكس صفات عباد الرحمنِ شمله قولهُ تعالى : ﴿**أُولئِكَ كالأنعامِ بلْ هُمْ أَضَلُّ**﴾ [الأعراف: ١٧٩]

يعنى أن الملحدين والمشركين وسائر أصناف الكافرين أضلُّ من الأنعام لأنهم عبادُ الأهواء ، وعبادُ الشبهات والشكوك ، وعبادُ الأحجار والأضرحة والستورِ المرخاة على الأضرحة يتمسحون ، ويتبركون بما لا يملك جلبَ نفع ولا دفعَ ضر.. أما عبادُ الرحمن فهم الذين نظروا فى

الآيات والبراهين ، فاعتبروا ، وأخلصوا الطاعة لله ، وعاشوا وماتوا على اليقين بأن الخير والشرَّ بإرادة الله وحده ، فهو مالكُ الملكِ ولا رادَّ لقضائه ، ولا مُعقِّب لحكمه، والجميعُ عبيده ، وواقعٌ تحت قهره وسلطانه ولا يقع فى الكون إلا ما يريده سبحانه .

من خصال عباد الرحمن ومسالكهم :

وأُولى صفاتِ عبادِ الرحمن بعد إخلاصِ التوحيدِ والطاعة أنهم يمشون على الأرض حلماء متواضعين ، يمشون فى اقتصاد ، غيرَ متكبرين ولا معجَبين بأنفسهم ، كما أنهم لا يمشون لإفسادٍ ولا لمعصية ، بل مشيُهم فى طاعة الله ، والأمورِ المباحة فى غير خيلاء ، ﴿**وإذَا خاطَبَهُم الجاهلُون قالُوا سلامًا**﴾ أى إذا تطاول عليهم السفهاء ، ردُّوهم ودفعوهم برفقٍ ولين ، فقالوا سلامًا ، أى تسلُّمًا منك ، أو متاركةً لا خيرَ فيها ولا شرَّ ، أو سلامٌ عليكم لا نبتغى الجاهلين ، فيسلّمون على السفهاء بالمرور سالمين من أذاهم ، ومبتعدين عن التعرض لهم ، فهم لا يقابلون السيئةَ بالسيئة ، ولكن يعفون ويصفحون اقتداءً برسول الله ﷺ ، فقد كانت لا تزيده شدةُ الجهل عليه إلا حلمًا .

هذا خلقُ عبادِ الرحمن فى نهارهم وفى مخالطتهم للناس ، وسعيهم بينهم ثم إذا جاء الليلُ كانوا كما وصفهم ربهم: ﴿**والذِين يَبِيتُون لربِّهِم سُجَّدًا وَقيامًا**﴾ .

أى يبيتون على طاعةٍ ساجدين ، قائمين بين يدى الرحمن ، مصلين متفكرين فى ملكوت السموات والأرض ، وهم مع طاعتهم مشفقون خائفون وَجِلون من عذاب الله ، يقولون فى عامة أوقاتهم وبعد صلواتهم:

﴿ربَّنا اصرِفْ عنَّا عذابَ جهنمَ إنَّ عَذابَها كانَ غَرامًا﴾ أى إن العذاب يلازمُ المذنبَ ـ والعياذُ بالله ـ كما يلازم الغريمُ صاحبُ الدينِ مدينَه ، إنهم خائفون من سوء المصير ، ومن دارٍ يطول فيها الشقاءُ ولا ينقضى ﴿إِنَّها سآءتْ مُستقرًّا ومقامًا﴾ .

إن لسانَ حالِ عباد الرحمن ينطق دومًا ناصحًا ومرشدًا :

امنعْ جفونَك أن تذوقَ منامــا ... وذرِ الدموعَ على الخدود سِجاما
واعلــمْ بأنك ميتٌ ومحاسَبٌ ... يامَــن على سُخط الجليل أقامــا
لله قــومٌ أخلصوا فــى حبِّــه ... فرِضــى بهـم واختصَّهم خُدَّامــا
قــومٌ إذا جَـنَّ الظـلامُ عليهم ... باتوا هــنالك سُجَّدا وقِيامـــا
خُمْصُ البطونِ من التعفُّف ضُمَّرا ... لا يعرِفون سِـوى الحلالِ طعامـا

يا أحباب الله :

هذه حالُ أولياء الله الصالحين الذين قَدَروا اللهَ حقَّ قَدره ، وعرفوه بصفات كمالِه ، ونعوتِ جلاله ، وأدركوا خطرَ ما هم مُقبلون عليه فى الدار الأبدية ، وطال تأملُهم فى آيات اللهِ الناطقاتِ بقدرته ووحدانيته . . لذا فهم عدلٌ خيار لا ينفقون فى غير طاعة ، وإذا أنفقوا على أنفسهم ومن يعولون كانت النفقةُ وسطًا بين طرفَى الإسرافِ والتبذير والبخلِ والشحِّ ، فهم لا يَصرفون فوق الحاجة ، ولا يبخلون على أهليهم فيقصِّرون فى حقهم : ﴿والذِينَ إِذا أَنفقُوا لم يُسرِفُوا ولم يَقتُروا وكانَ بينَ ذَلكَ قوَامًا﴾ .

أى إنهم متأدبون بأدب الشرع فى النفقة بألَّا يُفرِّط الإنسان حتى يُضيِّعَ حقوقًا أو عيالاً ونحوَ ذلك ، وألَّا يُضيقَ ويشحَّ حتى يُجيع العيال ، ويفرِطَ

فى البخل ، والحَسنُ فى ذلك هو القَوامُ أى العدلُ ، والقَوام فى كل واحد من الناس بحسب عياله وحاله وكسبِه وصبرِه عليه ، وخيرُ الأمور أوساطها.

ومن حِكم أهل الحكمة والعقل فى ذلك :

ـ كفى بالمرء سَرَفًا ألَّايشتهىَ شيئًا إلَّااشتراه فأكله .

ـ إن من السَّرَف أن تأكلَ كلَّ ما اشتهيت .

ـ يا بُنَىّ ، كُلْ فى نصف بطنِك ، ولا تَطرح ثوبًا حتى تَستخلقَه ، ولا تكن من قوم يجعلون ما رزقهم اللهُ فى بطونهم وعلى ظهورهم.

أخلاق مستقيمة وعقيدة صحيحة :

وبعد هذه الأوصافِ الجميلةِ والخصالِ الحميدة لعباد الرحمن ومسالكهم الاجتماعيةِ ترجع الآياتُ إليهم فتصفُهم بأنهم مبرَّءون من معتقدات الجاهلية وأعمالها فهم : ﴿**لَا يدعُون معَ اللهِ إلٰهًا آخرَ ولَا يَقتلُون النفسَ التى حرَّمَ اللهُ إلَّا بالحقِّ ولَا يَزْنُون**﴾ ..

أخرج الله عز وجل عبادَ الرحمنِ من صفات الهالكين من الكفرةِ والملحدين فى جحودهم أو عبادتِهم الأوثان ، وقتلِهم النفسَ بوأد البنات أو بقيامهم بشنِّ الغاراتِ وإزهاقِ أرواح الأبرياء ، وهم لا يرتكبون الفاحشة ، فهذه الموبقاتُ جزاؤها العقابُ الشديد : ﴿**ومَن يفعلْ ذٰلكَ يَلْقَ أثامًا* يُضاعَفْ لَه العذابُ يومَ القيامةِ ويخلُدْ فيه مُهانًا**﴾ أى يخلد فيه ذليلًاخاسئًا مبعدًا مطرودًا حقيرًا.

التوبة طهارة :

أمَّا من تاب ، ورجع إلى الدين الحق ، وآمن بالله وعمل عملًاصالحًا :

﴿فأولَٰئك يُبدِّل اللهُ سيِّئاتهم حسَنات وكانَ اللهُ غفورًا رَحيمًا﴾ أى بالإيمان الصحيحِ والتوبة تُنزعُ ملَكَةُ الشر منّ نفس الإنسان ، وتُودَعِ فيه ملكةُ الخير ، فإذا همَّ بسيئة رجع عنها ، وإذا حدَّثته نفسُه بشرٍّ انقلب عنه إلى الخير بوازع من إيمانه ، وبتوفيق الله بعد أن هداه للإيمان ، ورزقه التوبة النصوح .. أو أن سيئات التائب الماضيةَ تنقلب بنفس التوبة النصوح حسناتٍ لكثرة ندمه على ما مضى ، وكثرةِ استغفاره وتسبيحه وتحميده وتهليله وتكبيره .. وهذا من كرم اللهِ ورحمته إذا صحَّت توبةُ العبد .

وعباد الرحمن ﴿لا يشهدون الزور﴾ أى لا يُبطلون حقًّا، ولا يُعينون على باطل ﴿وإذَا مرُّوا باللَّغوِ مرُّوا كرامًا﴾ أى إذا رأوا الباطلَ أعرضوا عنه ، وأنكروه لا يرضَونه ، ولا يمالئون عليه ، ولا يجالسون أهله ، مُكرِمين أنفسَهم عن الوقوع فيما يَشينهم ، ويَعيبهم مما يُغضب الله عز وجل.

وعبادُ الرحمن ﴿إذَا ذُكِّروا بآياتِ ربِّهِم لَمْ يَخِرُّوا علَيْهَا صُمًّا وعُميانًا﴾ أى لم يُصِمُّوا آذانهم عن سماع العظة ، ولم يَغمضوا عيونَهم عن الاعتبار بالآيات ، كالملحدين والكفرةِ والمشركين ، بل إن المؤمنين إذا قرئ عليهم القرآنُ تدبروا وازاددت قلوبُهم لينًا وخشية ورجاء ، وإذا رأوا الآيات اعتبروا وازدادوا إيمانًا ، وهم يطلبون المسرةَ بالزوجة الصالحة وبالولد الصالح : ﴿والّذينَ يَقولُون ربَّنا هَبْ لَنَا من أزواجنا وذُرِّيَّاتنا قُرَّة أَعْيُنٍ وَاجعلْنا لِلمُتَّقين إمامًا﴾ يسألون الله أن يُخرِجَ من أصلابهم من يوحِّد الله ، ويطيعه ، ويعبده وحده ، وهذا مطلب نفيس لأهل العقل والحكمة، فالأسرة الصالحة بركةٌ فى الدنيا وخيرٌ فى الآخرة .

إن عبادَ الرحمٰنِ لهم الدرجاتُ العالية والأمنُ والسكينة فى الآخرة :

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرفةَ بِما صَبَرُوا ويُلَقَّوْنَ فيها تَحِيَّةً وسَلامًا * خَالِدِينَ فيها حَسُنَتْ مُستَقَرًّا ومُقامًا﴾ أولئك : أى عبادُ الرحمن المتصفون بالصفات الجميلة ، والأفعالِ والأقوال الجليلة يُجزَوْن يوم القيامة أعلى منازلِ جناتِ النعيم وأفضلَها وذلك بصبرهم على أمر ربهم ، وطاعةِ نبيهم ﷺ ، وفى الجنة يَلْقَون التوقيرَ والاحترامَ ولهم السلامُ وعليهم السلامُ ، وتدخل عليهم الملائكةُ من كل باب ﴿سَلَامٌ عليكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَىٰ الدارِ﴾. [الرعد: ٢٤]

اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين ، وأوليائك المخلصين وارحمنا بعفوك ورضاك يوم الدين . . ياربَّ العالمين .

جزاء التكذيب :

أما المكذبون فسيَجدون جزاء التكذيب والجحود فى نار الجحيم ولنتأمل ختام سورة الفرقان : ﴿قُلْ ما يَعْبَأُ بِكُم رَبِّى لَوْلا دُعَاؤُكم فَقَدْ كَذَّبْتُم فَسَوْفَ يَكُونُ لِزامًا﴾ أى لا يبالى ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه وحده فإنه سبحانه إنما خلق الخلقَ ليعبدوه ويوحدوه ، ويسبحوه بكرة وأصيلًا .

نقول : ما عبأتُ بفلان : أى ما باليتُ به ، أى ما كان له عندى وزنٌ ولا قدر . . وقد خلق الله البشر لعبادته ، وإنما يكون للإنسان وزنٌ ومنزلةٌ حقيقيةٌ إذا لبَّىٰ حين يُدعىٰ للدين الحق وإذا حبَّب إليه ربُّه الإيمانَ وزيَّنه فى قلبه ، وكرَّه إليه الفسوقَ والإلحادَ والعصيانَ ، أما المخذول الذى لا وزنَ له فى الحقيقة فهو الذى يعيش كافرًا ويموت على ضلاله وتكذيبِه فيكون التكذيبُ بالدِّين الحقّ لزامًا عليه . أى مقتضيًا لهلاكه وعذابه .

﴿فقد كذبتم﴾ أى كذبتم بما دُعيتم إليه أى لتعبدوا الله وحده ، وتتبعوا نبيَّه ، أو كذبتم بتوحيد الله فدعوتم معه الآلهة والشركاء ﴿فسوف يكون لزاما﴾ أى يكون تكذيبكم ملازمًا لكم إذ يؤدى بكم إلىٰ سوءِ العاقبةِ والخلود فى العذاب .

دعاء :

نسألُ اللهَ السلامةَ والعفْوَ والعافيةَ والنَّجاةَ من النَّار والفوزَ بجَنَّات النَّعيمِ ، ونسأله سبحانه أن يُحبِّبَ إلينا الإيمانَ وأن يُزَيِّنَه فى قُلوبِنا ، وأن يُكرِّه إلينا الكُفر والإلحادَ والفُسوق والعِصْيان ، وأن يرزقنا حُسن الاقتداءِ بنبيه الأمين ﷺ.

***

تمت مراجعة طباعة هذا الكتاب بحمد الله وعونه فى السابع والعشرين منْ شهر رمضان المبارك عام ١٤١٤ من الهجرة التاسع من مارس عام ١٩٩٤ من الميلاد .

وكان تأليفه قد تم فى (عام ١٤٠٨ من الهجرة ، ١٩٨٨ من الميلاد).

أسأل الله عز وجل أن يكفّر به السيئات وأن يغفر لى ذنوبى ، وأن يعيننى فيما بقى من العمر على شكره ، وذكره ، وحسن عبادته ، وأن يجعل هذا الكتاب نافعًا للناس أجمعين. . . آمين

أحمد بن محمد طاحون

الفهرس

تمهيد

التفاوت فى الحظوظ نعمة ، والحسد نقمة ٥

١ـ تعظيم القرآن والدعوة إلى التوحيد والتنزيه ١١

٢ـ ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا﴾

وسخف تفكير الملحدين والمشركين ١٦

٣ـ ﴿بل كذبوا بالساعة﴾

ولم ينظروا فى الدليل والبرهان ٢١

٤ـ بشريةُ الرسول ومحاجَّةُ المشركين لهدم أباطيلهم ٢٦

٥ـ تعنت المشركين والملحدين وعاقبه استكبارهم ٣١

٦ـ المعاندون والمتعنتون فى ضلال عظيم ٣٦

٧ـ الهوى إله يعبد من دون الله

وفى آيات الكون آيات شاهدة بوحدانية الخالق العظيم ٤٢

٨ـ من براهين القدرة والرحمة

وبالإسلام تنال كرامة الدنيا الآخرة ٤٨

٩ـ توكل على الحى الباقى

وسبح بحمده تعش على هداية ٥٤

١٠ـ الرحمنُ فاسأل به خبيرا ٥٩

١١ـ طوبى لمن وعظه تعاقب الليل والنهار ٦٤

١٢ـ عباد الرحمن أئمة يقتدى بهم فى الخير ٦٩